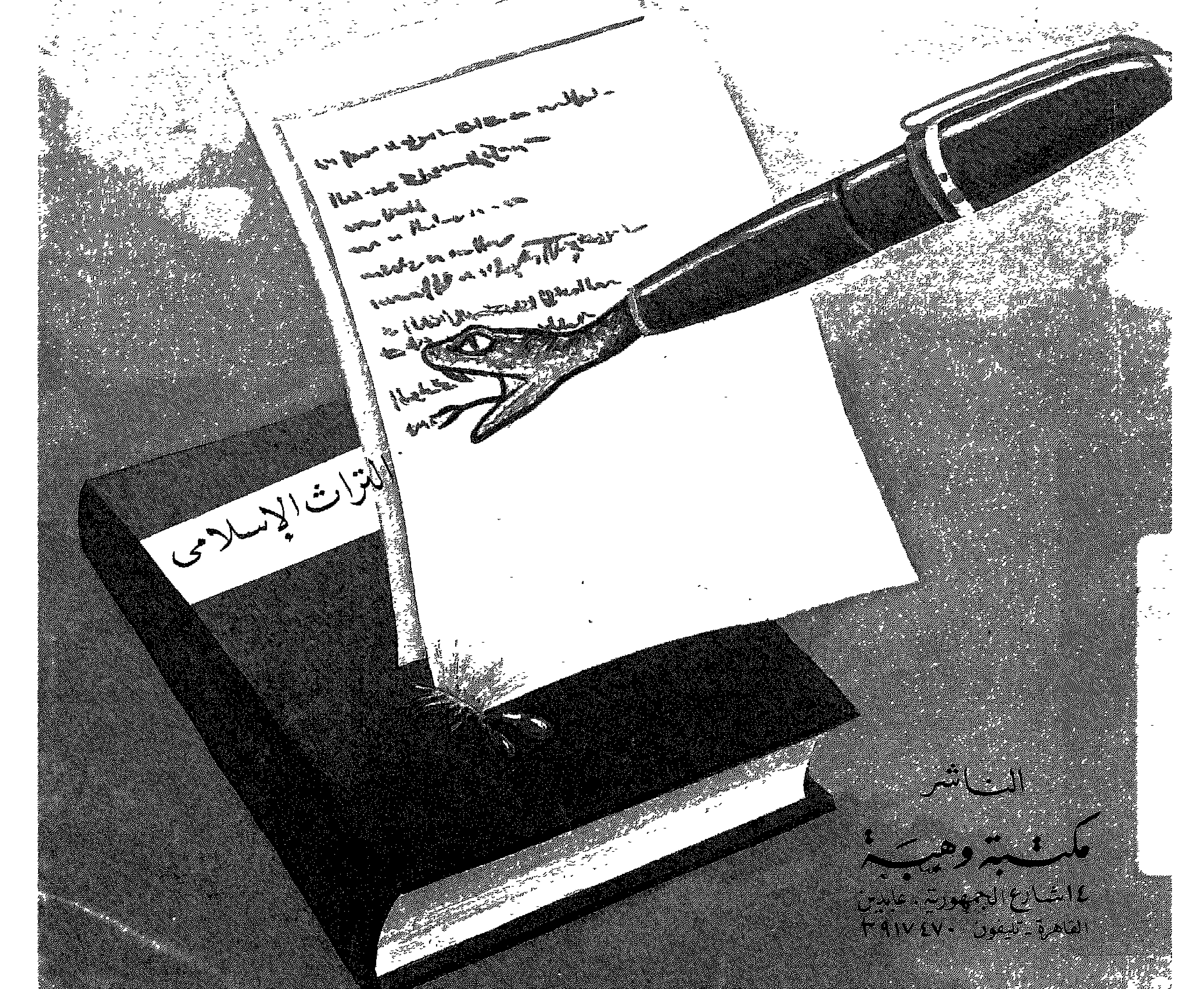
دكتور

عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

٥ لا بد .. من دين الله .. لدنيا الناس

لماذا..؟

لابد من دين الله.. لدنيا الناس



الناشر

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين

القاهرة ـ تليفون ٣٩١٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

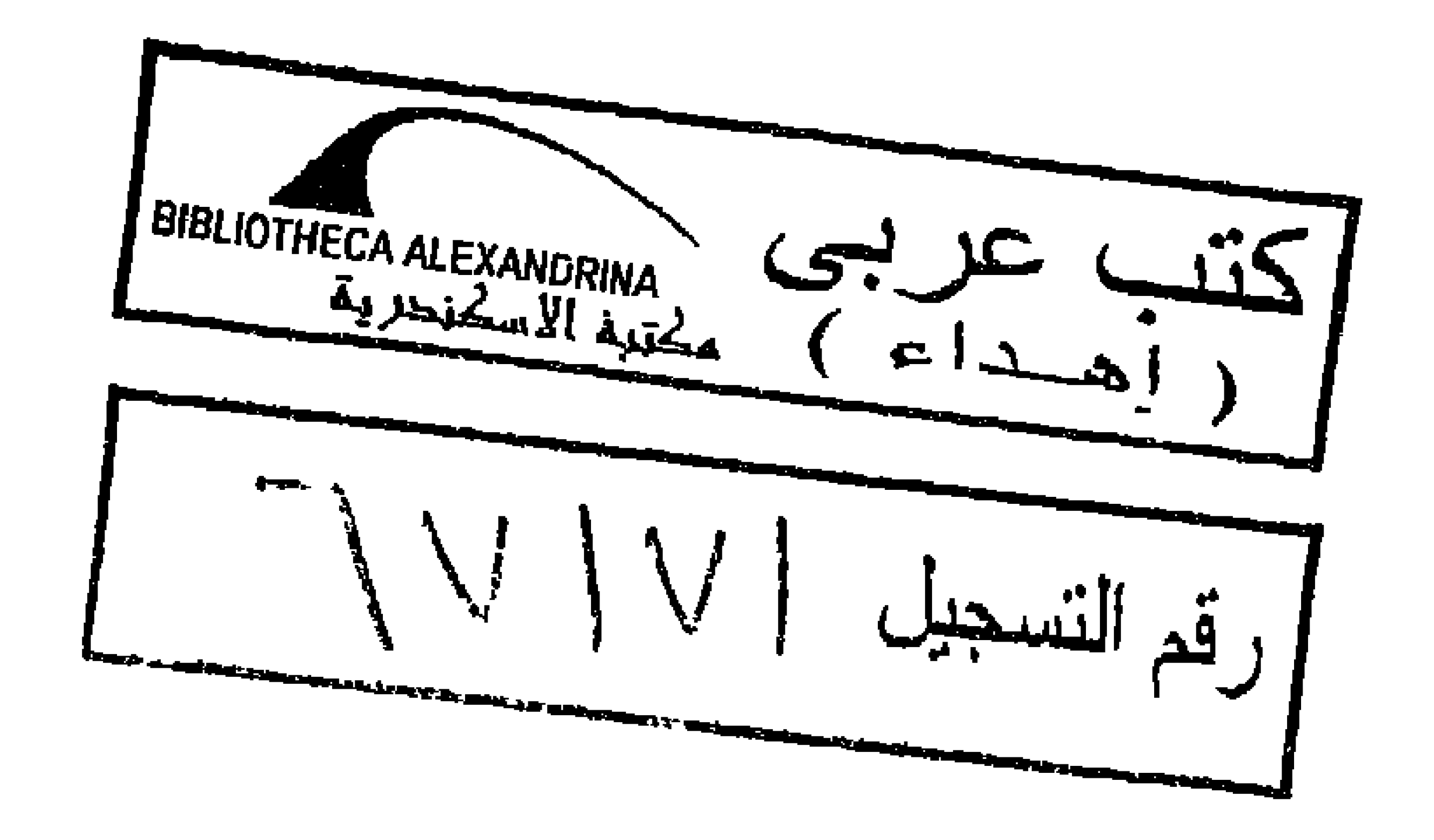
أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

دكتور
عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

٥ لابد.. من دين الله.. لدنيا الناس

لماذا..؟
لابد من دين الله.. لدنيا الناس



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

اختلف المفكرون حول نظرية المعرفة اختلافاً كبيراً وبخاصة فى ما وراء الطبيعة - أو « الغيبيات » - ونتج عن ذلك مذاهب مختلفة أبرزها ثلاثة . فمن قائل : إن طريق اكتساب المعارف هو الدين ، وقائل : إن طريق اكتسابها هو العقل ، وقائل : إن طريق اكتساب المعرفة هو الحواس أو العلم المادى الوضعى .

بَيْدَ أن الحق الذى لا مناص عنه أن لكل هذه الطرق مجالاً يعمل فيه . وأن العقل والحواس غير مؤهلين لاكتساب المعرفة فى ما وراء الطبيعة أو الغيبيات . فالوحى الأمين وأقوال الرسل هى المرجع الوحيد فى معرفة « الإيمانيات » ، وما وراء الطبيعة ، وأن الحواس مقصور دورها على اكتساب المعرفة من « المادة » ، سواء أكانت حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، وهى التى تغذى العقل بالحقائق الجزئية المبثوثة فى المادة ، ثم يقوم العقل بدرسها وتحليلها واستخراج قوانينها وتوجيهها . وفى ما يتصل بالمادة أو العلوم العملية والرياضية فإن دائرة الاختصاص تتسع للبحث العقلى والعلمى اتساعاً هائلاً .

أما فى القضايا الإيمانية فإن موقف العقل مقصور على التلقى والتوجيه من الوحى الأمين ، ولا يصلح العقل للانفراد باكتساب المعرفة اليقينية فى هذا المجال . بل لا بد من توجيه الوحى الأمين وهدايته للعقل فيها ، وقد أدرك كثير من الدارسين الغربيين - حديثاً - هذه الحقيقة ، وكثرت تشبيهاتهم لدور العقل فيها . فمنهم مَن شبَّه العقل فى مجال ما وراء الطبيعة بالبوصلة التى تشير إلى الصواب ولكن لا توصل إليه ، ومنهم مَن شبَّه دور العقل فيها بمن يريد أن يعبر بحراً متلاطم الأمواج - لا تُرى شواطئه - بالعوم فوق حزمة من « القش » ، ومنهم مَن شبَّهه بـ « الهوام » ترى النار فتحسبها نافذة مضيئة فتريد الخروج منها فتحترق فى الحال .

والآن . . ترتفع أصوات فى كل مكان بضرورة الاعتماد على النظر العقلى فى كل شئ ، وتعتبر الحقائق الإيمانية من قبيل الخرافات ، وآخرون يبالغون فى قيمة العلم الوصفى المدرَك بالحواس الخمس ، الخاضع للتجربة والملاحظة ، ويحكمون بأن ما لا يُدرك بالحواس فهو غير موجود ، وهؤلاء هم العَلمانيون . ومن أجل هذا وضعنا هذه الرسالة لبيان أن دين الله لازم لدنيا الناس لزوم الروح للجسد حتى يكون حياً . وأوجزنا الحديث أنَّ دين الله لا بد منه لحياة الناس فى ثلاثة مجالات :

١ - العقائد .

٢ - التشريع .

٣ - الأخلاق .

وما عدا هذه المجالات الثلاث فيه متسع للنظر العقلى والبحث العلمى . ومهما كان الأمر فإن دين الله لا بد منه لنا لنكتسب المعرفة الحقة عن طريقه فى حقائق الإيمان ، وليوجهنا الوجهة الحسنة فى تفكيرنا العقلى فيما للعقل اختصاص ، وفى بحثنا العلمى فيما للحواس عمل فيه . ولولا دين الله لعاشت الإنسانية فى « تيه » وفقدان للذاكرة ، ولما عرفنا مَن نحن ؟ ولا من أين جئنا ؟ ولماذا جئنا ؟ وإلام نسير ؟ وكيف نسير ؟

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

القاهرة - الظاهر: المحرَّم ١٤١٥ هـ (يونيو ١٩٩٤ م) .

المؤلف

عبد العظيم إبراهيم المطعنى

* * *

---

(١) المائدة : ١٥ - ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ اللحظة الأولى لبداية التاريخ البَشرى على هذه الأرض ، ومع مهبط أبينا آدم وأُمنا حوَّاء ، ومع مهبط إبليس وجنده فى يوم لا يعلم تحديده على وجه اليقين إلا الله علام الغيوب ، منذ ذلك التاريخ الضارب فى القِدم ، وضع الله - مالك هذا الكون - أمام آدم وزوجه ومَن يتناسل منهما من الذُرِّية إلى يوم القيامة نظاماً كونياً عاماً للحياة ، مهما قَلَّ أفرادها أو كثروا . فقال جَلَّ ثناؤه : ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (١) .

فالحياة التى بدأت فى ذلك الزمن البعيد إنما هى حركة وسير ، وقد أخبر الله آدم وحوَّاء ، ومعهما إبليس ، بأنه وضع لهذه الحياة نظاماً عاماً ، وأنَّ هُدىً منه سيأتى لا محالة ينظم حركة الحياة كلها - صغيرها وكبيرها - هدىً يرسم خطاً أخضر إيذاناً بالسير فى الاتجاه السليم ، ويرسم خطاً أحمر يقضى بالتوقف ، دفعاً للأخطار التى تنجم عن السير فى هذا الاتجاه المعوج .

وأعلمهم أن السعادة الحقَّة إنما هى ثمرة لازمة لاتباع هداه : ﴿ **فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ ، أما مخالفة هُداه فيترتب عليها الشقاء الدائم : ﴿ **أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

ويتكرر هذا البيان مرة ثانية فى قوله تعالى : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ**

---

(١) البقرة : ٣٨ - ٣٩

يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

الهدى الذى وعد الله بإتيانه فى آيتى البقرة السابقتين ، زيد هنا وضوحاً ، هناك هدىً ، وهنا رسل يَقُصُّون آيات الله ، فالله هو واضع الهدى أو النظام العام لحركة سير الحياة عبر التاريخ كله ، منذ بدأ ، وإلى أن تقوم الساعة ، والوحى الأمين هو الذى يُبلِّغ الرسل هدى الله ، والرسل تُبلِّغ الناس ذلك الهدى المنظم لحياة البَشر فى كل زمان ، وفى كل مكان .

والنتيجة هى هى : سعادة أبدية لمن يتبع الهدى ، وشقاء أبدى لمن يخالفه .

ويتكرر البيان مرة ثالثة فى قوله جَلَّ ذكره : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (٢) .

والهدى الذى وعد الله بمجيئه وأمر باتباعه كثيراً ما يُعبِّر عنه القرآن بالإيمان والعمل الصالح ، وهما كلمتان جامعتان لمعان شتَّى من أمور الإيمان ، وضروب العمل الصالح ، وللإيمان والعمل الصالح شأن عظيم فى الهدى الإلَهى ، وعليهما يقوم صَرْح الحياة الفاضلة العزيزة الكريمة .

شأن عظيم فى حياة الفرد ، وشأن عظيم فى حياة الجماعة المؤمنة .

ففى حياة الفرد يكفى أن نشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٣٥ - ٣٦ (٢) طه : ١٢٣ - ١٢٦ (٣) طه : ١١٢

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وفى حياة الجماعة المؤمنة يكفى أن نشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

جعل الله جزاء الإيمان والعمل الصالح فى هذه الآية الكريمة مجموع ثلاثة أمور :

* الاستخلاف فى الأرض .

* تمكين الدين الذى ارتضاه للمؤمنين .

* تبديل الخوف أمناً .

إنه لجزاء عظيم ، وغايات نبيلة ، كل الشعوب والدول تجعلها نُصب أعينها منذ نشأت الفصائل البَشرية على الأرض ، وتوزع الناس فى شكل جماعات أو أُمم .

فالاستخلاف يعنى السيادة للأُمة أو الجماعة ، أو قوة السلطان والريادة وعزة الجانب .

والتمكين الدينى يعنى قوة السلطان الأدبى ، وهو في النظم الدولية المعاصرة يعنى سيادة المبادئ التى تتخذها الدولة - أو الكتل الدولية - منهاجاً لها فى الحياة مثل النظام الرأسمالى الليبرالى الغربى والنظام الاشتراكى ، فما

(١) النحل : ٩٧ (٢) النور : ٥٥

أضخم الجهود المادية والمعنوية التى بذلها كل من المعسكرين الرأسمالى الليبرالى ، والاشتراكى الشيوعى على مدى سبعين عاماً ، كل منهما يروج لنظامه ، ويحاول فرضه ولو بقوة السلاح فى صراع شاق ، وعمل دءوب .

أما تبديل الخوف أمناً ، فهو غاية الغايات لدى الأُمم والكتل الدولية ، أُنشئت من أجله ترسانات الأسلحة ، ووقع التنافس المجنون فى اختراع أسلحة التدمير والبطش وأجهزة التشويش والإنذار المبكر . وكل دولة - الآن - مهما صغرت أو كبرت لها جيوش تتناسب مع حجمها وإمكاناتها ومخاوفها أو مطامعها . والغاية من هذا كله تحقيق الأمن ودفع الخطر الخارجى .

هذه الدعائم الثلاث ضمنها الله فى وعده للذين يؤمنون الإيمان الحق ويعملون الصالحات ، شريطة أن يأخذوا بالأسباب المتاحة من جانبهم : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .. ﴾ (١) .

فالإيمان والعمل الصالح يكفل للأفراد الحياة الطيبة فى الدنيا ، والجزاء الحسن فى الآخرة .

والإيمان والعمل الصالح يكفل للجماعة العزة والكرامة فى الدنيا ، ويحميانها من الأخطار الخارجية . فلا ينال منها عدو ، ولا يزهد فيها صديق .

الفريق الذى يتبع هدى الله - الإيمان والعمل الصالح - هم أولياء الله فى الدنيا ، وأهل رضوانه فى الآخرة : ﴿ اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) البقرة : ٢٥٧

فريقان متقابلان . . فريق اتبع الهدى يخصه الله بألطافه فى الدارين ؛ لأنهم أولياؤه ، وهو وليهم : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

وفريق حاد عن هدى الله فوليهم الشيطان يزج بهم فى الظلمات وما هم بخارجين منها ، لأنهم أولياءُ الشيطان ، وهو وليهم . . وهيهات هيهات أن يكونوا أهلاً لنصر الله فى الدنيا ، ولرضوانه فى الآخرة : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .

إن مدار العمل فى هذه الحياة هو الهدى الذى ذكره الله لأبى البَشر آدم وزوجه ، قبل أن تطأ أقدامهما الأرض بادئين أول حركة لحياة البَشر عليها ، فإذا قُضِىَ الأجل المسمى عند الله لهذه الحياة الطويلة ، العريضة ، العميقة ، كان هدى الله الذى أنزله للناس على ألسنة رسله الأبرار ، هو مدار الحساب من ثواب وعقاب ، فكل نفس بما كسبت فى الحياة الدنيا رهينة ، يوفيها ربها جزاء عملها ، وما الله بظلام للعبيد ، يومئذ يفترق العباد فريقين . . فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٣) .

وقبل أن يكونوا فى العذاب مُحضَرين يُسْأَلون وهم يُساقون إلى جهنم :

---

(١) يونس ؛ ٦٢ - ٦٤ (٢) الجاثية : ٢١ (٣) الروم : ١٤ - ١٦

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١) .

ثم ينسون ما قيل لهم وهم فى النار ، فيقولون لخزنة جهنم وهم يتألمون من عذابها : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ (٢) .

ولكنهم يسمعون من الخزنة ما يغيظهم : ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِى ضَلالٍ * إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٣) .

هذا هو هدى الله بدءاً ونهاية ، وما بين البدء والنهاية . إن الله خالق هذا الكون ومَن فيه ، وما فيه ، أنزل هذا الهدى ليهتدى به عباده فى كل خطوة يخطونها ، وفى كل وقفة يقفونها . وليس لهم - أفراداً أو جماعات - أن يُعرضوا عن هدى الله ، أو يضعوا لأنفسهم منهجاً غير منهجه وهداه ، وكل فرد يضبط حركة حياته على هدى الله استحق إنعام الله وتأييده ، وحلَّ له أن يستمتع بما أنعم الله عليه ، وكل جماعة تحرَّت أوامر الله ونواهيه فى كل عمل أو ترك ، فهى الجماعة الراشدة الحقيقة باستخلاف الله لها فى الأرض وبالتمكين والنصر ، وبالأمن العاصم من كل خوف . وظيفتنا العظمى فى

---

(١) الزمر : ٧١ - ٧٢ (٢) غافر : ٤٩ (٣) غافر : ٥٠ - ٥٢

هذه الحياة طاعة الله ورسوله ، وتحرى السبيل الموصلة إليه . ومَن يؤدى هذه الوظيفة طاب له التنعم بآلاء الله ، فهى مخلوقة له ومن أجله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

تشير هذه الآية الحكيمة أنَّ ما خلق الله من النعم فى الدنيا لا يستحقه إلا أهل طاعته ، وإن زاحمهم العصاة فيها بحكم أنهم أحياء ، أما فى الآخرة فهى لهم خالصة لا يشركهم فيها أحد .

بالطاعة لله ورسوله حَلَّ للطائعين التنعم بنعم الله ، وأما العصاة الفجرة فيأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم .

والفرق بين مَن اتبع هدى الله ، وبين مَن خالفه كالفرق بين الموظف الذى حرص على أداء واجبة وراعى الله فى كل عمل يؤديه ، وبين الموظف (البلطجى) الذى لا يؤدى واجبه ويتقاضى أجراً هو سُحْت خالص ؛ لأنه لم يؤد عملاً يستحق به الأجر ، إنَّ شرط التمتع بما فى الأرض من نِعَمٍ هو مخالفة الشيطان ، ومَن خالف الشيطان وعصاه فقد اتبع هدى الله .

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

هذا الهدى الذى أعلم الله به أبانا آدم وزوجه حوَّاء على وجه الإجمال ساعة هبطا إلى الأرض فى بداية التاريخ البَشرى عليها ، هو هدىً ملزم وليس للعباد إهماله أو تبديله . يؤكد هذا المعنى قوله تبارك اسمه :

---

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) البقرة : ١٦٨

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ (١) .

وإنما كان هدىً لازم الاتباع ؛ لأنه هدى الله ، والله يعلم المصلح من المفسد : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

إن كل صانع يعلم أسرار صنعته وطريقة تشغيلها الأمثل ، والكون ومَن فيه وما فيه هو صُنْع الله العليم الخبير . فإذا حرص الناس على التزام هَدْيه فى الحياة صلحت الحياة وصلحوا ، وإذا أداروا لهَدْى الله ظهورهم ، وخبطوا فى الحياة خبط عشواء ، أو استبدلوا مناهج أخرى بمنهج الله وهَدْيه وأساءوا حركة تشغيل الحياة عطبت الحياة وعطبوا ، وكان أقرب تمثيل لهم بالمريض الذى فحص علِّته طبيب حاذق وحرَّر له « روشتة الدواء » مبيناً فيها مواعيد تناول الدواء ومقادير جرعاته . فإذا بهذا المريض يمزق « وصفة » الطبيب ويحرر « روشتة » بنفسه لنفسه ، وهو لا يدرى من علوم الطب شيئاً . إن النتيجة التى لا مفر منها لهذا الأحمق أن يُلْحق الضرر الخطير بصحته ، إما باستدامة مرضه أو بزيادته ؛ لأنه لم يعمل بنُصح الطبيب الذى فحصه وحدَّد له الدواء المناسب لحالته .

هذا - ولله المثل الأعلى - تمثيل توضيحى لحالة الناس إذا أعرضوا عن هدى الله ، واتخذوا بدائل جاهلة وارتضوها منهجاً لهم فى الحياة مهما توقعوا أنها صالحة . وقديماً قال الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأوَّلُ ما يجنى عليه اجتهاده

إن وصف السفه إذا وصفتَ به المريض الذى مزَّق روشتة الطبيب الحاذق ينطبق على الناس إذا لم يتبعوا هدى الله الذى جاء به رسله ، وراحوا

---

(١) الأحزاب : ٣٦   (٢) الملك : ١٤

يتلمسون الهدى من مصادر أرضية جاهلة وإن حصّلت شيئاً من العلوم ، سفيهة وإن كانت تحمل فى رؤوسها عقولاً ؛ لأنها أعملت علومها القاصرة وعقولها المحدودة فيما ليس للعلم والعقل فيه مجال !!

للعلوم والعقول فى هدى الله حدود ودوائر تعمل فيها فتصيب ، فإذا خرجت عن تلك الحدود والدوائر أتت بكل عبث وسخف ، فالله خلق للإنسان عيناً يبصر بها المرئيات ، وأُذناً يسمع بها الصوتيات ، وذَوْقاً يدرك به الطعوم ، ولن تؤدى حاسة من هذه الحواس وظيفة الأخرى . فالعين لن تسمع ، والأُذن لن تبصر ، واللسان لن يبصر ولن يسمع ، وكذلك بقية الحواس .

وهدى الله الذى أعلم به آدم وحوَّاء بأنه سيأتى ، ثم جاءت به الرسل ، هذا الهدى له مجال لا يصلح فيه غيره من العلوم والعقول ؛ لأن للعلوم والعقول مجالاتها التى أذن الله باستعمالها فيها . وحثَّ الناس على هذا الاستعمال ، ويوم اتخذ الناس من العلم والعقل بدائل عن هدى الله فشت فى العالَم مذاهب وأيديولوچيات أصابت الحياة الإنسانية بنكسات تولَّدت عنها آثار سيئة ، ظل العالَم منذ برزت تلك المذاهب - ولا يزال - كالقطعان التى غاب عنها راعيها ، ففتكت بها الشرور ، وأودت بها غوائل السوء ، وتفرَّقت بدداً فى كل المفاوز المهلكة به .

إن الإعراض عن هدى الله هو أقصر طريق إلى الهلاك وسوء المصير : **﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾** (١) .

---

(١) السجدة : ٢٢

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ، حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [1] .

* *

● مجالات هدى الله :

من محاسن هدى الله ، ومن لطائف رحمته أنه تكفَّل ببيان ما لم يصلح لبيانه سواه ، ثم ترك المجال فسيحاً للعلم والعقل فيما للعلم والعقل فيه مقال .

والمجالات التى استأثر هدى الله بالكلمة فيها ؛ لأن سواه غير مؤهل لإدراكها ، ثلاثة مجالات ، هى :

١ - أمور العقيدة .

٢ - أمور التشريع .

٣ - أمور الأخلاق .

هذه المجالات الثلاثة لا يُسمع فيها غير النصوص المقدَّسة من كتاب الله وحديث رسوله الأمين ، وليس من حق أحد أن يقول فيها ما يخالف هدى الله . وفيما يأتى بيان موجز عن كل مجال من هذه المجالات الثلاثة . . .

* * *

---

(١) الأنعام : ٤٤

المجال الأول : العقيدة

العقيدة الدينية الصحيحة لا طريق لها إلا هدى الله المتمثل - الآن - فى كتاب الله العزيز (القرآن) ، وحديث رسوله الكريم ، وتحصيل هذه العقيدة من ألزم لوازم الحياة الإنسانية ، تطمئن بها القلوب ، وتستقر النفوس ، فإذا فقد الإنسان هذه العقيدة أصيب بالقلق النفسى والاضطراب الفكرى .

وقد تحدَّث القرآن عن أثر الإيمان الحق فى القلوب فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

كما تحدَّث عن أثر الكفر وما ينتاب صاحبه من الضيق والتخبط فقال : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٣) .

لذلك كانت مهمة الرسل الأولى هى بيان العقائد الدينية ، وفى مقدمتها العقيدة الإلهية ، من الدعوة إلى الإيمان بالله ، ثم توحيده ، ثم ما يجب له من صفات الكمال ، وما يستحيل من صفات النقص ، ثم الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه إليه :

---

(١) الرعد : ٢٨ (٢) الأنعام : ١٢٥ (٣) النور : ٤٠

* فنوح عليه السلام قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

* وإبراهيم عليه السلام قال لقومه : ﴿ اعْبُدُواْ اللهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ... ﴾ (٢) .

* وشعيب عليه السلام قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الآخِرَ .. ﴾ (٣) .

* وموسى عليه السلام قال لقومه : ﴿ .. إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (٤) .

* وعيسى عليه السلام قال لقومه : ﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٦) .

* وهود عليه السلام قال لقومه : ﴿ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ (٧) .

* وصالح عليه السلام قال لقومه : ﴿ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ (٨) .

---

(١) الأعراف : ٥٩ (٢) العنكبوت : ١٦ - ١٧ (٣) العنكبوت : ٣٦
(٤) طه : ٩٨ (٥) آل عمران : ٥١ (٦) المائدة : ٧٢
(٧) الأعراف : ٦٥ (٨) الأعراف : ٧٣

* وخاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - قال لقومه : ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ .. إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

إن العقيدة الإلَهية كما جاءت فى هدى الله على ألسنة الرسل هى أساس الفلاح فى الدنيا والآخرة ، ومطلب جليل من مطالب القلب والروح ، وعلى هداها تقوم كل أصول الدين فى العبادات ، والمعاملات ، وفى التهذيب الرفيع والأخلاق الفاضلة . هذا بالإضافة إلى حلول فطرية لمشكلات الوجود التى شغلت وتشغل الفكر الإنسانى بدءاً من العصور البدائية ، حتى العصر الحديث ، بما فيه من ازدهار العلوم فى شتَّى مجالات الحياة : المادية والروحية ، وعالَم ما وراء الطبيعة المحسوسة ، أو ما يسمى بـ « الميتافيزيقا » .

هذه العقيدة ، وسائر عقائد الإيمان ، ضَلَّ مَن يطلبها عن غير طريق هدى الله أو الوحى الأمين .

ومنذ القِدَم ، وحتى فى عصرنا الحاضر ، اتجه طوائف من الناس لإعمال العقل فى العقائد الإيمانية ، أو عالَم ما وراء الطبيعة ، فجنح البحث العقلى بهم إلى منزلقات شديدة الخطورة ، منهم مَن أدَّى به عقله إلى الكفر والإلحاد ، ومنهم مَن ظل فى حظيرة الإيمان ، ولكنه لم يهتد إلى الحق والصواب .

والسبب فى هذا التخبط والانحدار أنهم طلبوا الشئ من غير جهته ، وكلَّفوا العقل ما ليس فى مقدرته ، واعتمدوا عليه - وحده - فى مجال هو غيرِ مؤهَّل قطعاً لإدراكه مستقلاً عن هادٍ يهديه ، ويأخذ بيده إلى شاطئ

---

(١) سورة ص : ٦٥
(٢) فصلت : ٦

الأمان ، فكان حالهم حال مَن يتطلب فى الماء جذوة نار ، كما قال الشاعر الحكيم :

ومكلِّف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار !

وشطحات العقول فى هذا المجال يمكن إرجاعها إلى مرحلتين :

إحداهما : شطحات حدثت فى بيئات لم يكن لديها رصيد من الرسالات السماوية .

والثانية : شطحات حدثت فى بيئات لديها رصيد من الرسالات السماوية .

وها نحن أولاً نوجز الحديث عن هذه الظواهر على النسق الذى قدَّمناه . .

* * *

مرحلة ما قبل الرسالات

لما كانت نزعة التدين فطرية فى الإنسان ؛ لأنها مطلب روحى وعقلى فى آنٍ واحد ، تتصورها العقول ، وتشتاق إليها القلوب اشتياق الجسد إلى الطعام والشراب .

لما كان الأمر كذلك فإن المجتمعات البَشرية فى كل زمان ومكان عرفت النزعة الدينية حتى فى العصور البدائية . وصال العقل وجال فى هذا الميدان الرهيب ، وكادت التصورات العقلية تتعدد بتعدد البيئات ، بل بتعدد عقول المفكرين فى تلك البيئات . وهذا التعدد والاختلاف مصير حتمى عندما يستقل العقل بالتفكير فى موضوع لم تؤهله قدراته على الوصول إلى القول الفصل فيه .

ويكفى أن نضرب أمثلة لاضطراب التصورات العقلية فى ما وراءِ الطبيعة ، أو العقائد الدينية فى بيئات قديمة على النحو الآتى :

● بيئة قدماء المصريين :

عرفت البيئة المصرية القديمة شيئاً عن توحيد « الإلَه » فى عبادة « آتون » ، ومع هذا لم تخل هذه العقيدة من شوائب الشرك ، حيث كانوا يعبدون « الشمس » فى صورة إلَه ؟!

ثم أخذت عقيدة المصريين تقترب خطوة بعد خطوة من العقائد الوثنية وتعدد الآلهة فى آنٍ واحد .

وكان سبب التعدد عندهم هو النظر فى صفات الإله الواحد . فقد جعلوا

لكل صفة منها « تمثالاً » ، ثم اتخذوا هذه التماثيل آلهة وعبدوها كما يُعبد الإلَه الواحد ؟ ثم أطلقوا على كل صفة اسم إلَه :

فالإله الخالق عندهم هو « بتاح » ، وعقل الإله هو « عمون » ، وروح الله هو « توم » ، وإله التوليد هو « خام » ، ثم وصفوا « خام » هذا بأنه « أبو أبيه » أى الولد أبو والده ؟!

هذا فى شأن الآلهة الذكور ، أما الآلهات الإناث فهن : « أموت » ، وهى - عندهم - ولدت نفسها ؟! و« إيزيس » امرأة الإله « أوزوريس » وهو إلَه الخير . أما إلَه الشر - عندهم - فهو « تيفون » ؟!

بل أضافوا إلى هذه « الجماعة من الآلهة » آلهة أخرى من المخلوقات الحسية كالأسد والذئب والكلب والمعز والكباش والنيل ؟!

ووسَّعوا أبواب الدخول فى « الألوهية » ، فكل مَن اخترع شيئاً جديداً أو ألَّف كتاباً مفيداً صار - عندهم - إلَهاً ؟!

وظاهرة الصراع بين الآلهة - عندهم - شئ سائغ ومألوف !!

فقد زعموا أن « تيفون » إله الشر قتل « أوزوريس » إلَه الخير ؟! ، ولكن « أوزوريس » عاد مرة أخرى بعد قتله ؟! وتغلب على « تيفون » إلَه الشر .

هذه صورة موجزة للاضطراب العقلى عند قدماء المصريين حين اعتمدوا على عقولهم فى تصور العقائدة الدينية .

❋

❋ التثليث والفداء :

يثبت غير واحد من علماء المقارنة بين الأديان أن المصريين القدماء عرفوا عقيدة « التثليث » فى بعض المراحل ، يقول العلامة « أدون » : أن كهنة هيكل

« مانفيس » بمصر - قديماً - كانوا يعبرون عن الثالوث الأقدس بقولهم : إن الأول خلق الثانى ، والثانى مع الأول خلق الثالث !

وأن بعض ملوكهم كان يقول : « الابن أولاً ، ثم الكلمة ، ومعها روح القدس ، وأن لهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت الأبدية » !

أما عقيدة الفداء فيقول عنها السير « ديل نكسن » : كان قدماء المصريين يصفون « أوزوريس » بالصالح الإلَهى ، وجالب الفكرة الصالحة ، وأنه قام من بين الأموات ، بعد أن ضحَّى بنفسه وقدَّمها للذبح ليهب الناس الحياة !

ويقول البحَّاثة « بونيك » فى كتاب « عقيدة المصريين » : إنهم كانوا يعدون « أوزوريس » أحد مُخَلِّصى العالَم !

وقال « أمورى » فى كتابه « الخرافات » : إن قدماء المصرين كانوا يعدون « أوزوريس » أعظم مثال لتقديم النفس ذبيحة لينال الناس الحياة !

*

*** تعقيب :**

إن عقيدة قدماء المصريين فى الأمور الدينية حسب الموجز الذى قدَّمناه لدليل قاطع على اضطراب العقل فى تصور « الغيبيات » أو البحث فى ما وراء الطبيعة . وبرهان ساطع على أن العقل حين يُقحِم نفسه - بلا هادٍ يهديه - فيما ليس هو مؤهلاً له ، فإن الأوهام تسيطر عليه ، وتتشعب به الطرق ، إن أصاب مرة أخطأ عشرات المرات ، وليس له من نفسه من عاصم ولن يكون .

* *

● بيئة قدماء اليونان :

اليونان من أمم الحضارات القديمة ، ما فى ذلك من شك ، ولكنهم لما تصدوا لعالَم ما وراء الطبيعة خلطوا صواباً قليلاً بأخطاء لا تكاد تحصر . وفى السطور الآتية نوجز الحديث عن عقائدهم فى « الألوهية » عامة ، كما نشير إلى خطأ أكبر عقل من عقولهم فى تصور صفات « الإلَه » .

* العقائد العامة :

أبرز السمات فى عقائد اليونان التعدد والوثنية ، فهم مثل قدماء المصريين يجعلون لظواهر الحياة آلهة ، كل إلَه مختص بظاهرة ، بَيْدَ أنهم يفوقون المصريين فى التعدد بشكل ملحوظ ، والآلهة عندهم يتوالدون ويتناسلون ، وهم يقسمون الآلهة قسمين :

آلهة الدرجة الأولى ! ثم آلهة الدرجة الثانية - أو أنصاف الآلهة .

أقدم آلهة الدرجة الأولى هو « ساتورن » وهو الكوكب المعروف بـ« زحل » تزوج « ساتورن » هذا « سبيلة » وهى الأرض الزراعية ؟! ، ومن أولاده الإله « چوبيتر » أو رب الأرباب ، و« چوبيتر » طرد أباه « ساتورن » من السماء ، وقسَّم العالَم بينه وبين إخوته ، فأخذ هو العالم العلوى ، وأعطى سلطنة المياه - البحار - لأخيه « نبتون » ، وسلطنة الجزر لأخيه « أبلوطون » ، ثم تفرغ « چوبيتر » لخلق النوع البَشرى ؟!

ثم وُلِد لـ « چوبيتر » أولاد كثيرون كل منهم صار إلٰهاً ، ووُلِد له بنات كذلك ، وتمضى الرحلة مع عقائد اليونان فترى للأفراح والأعراس إلٰهة : « همنة » ، وللجمال والصبا إلٰهة : « هيبى » ، وللحرب إله : « مارس » ، وللحكمة إلٰه : « منيرفا » ، وللتجارة إلٰه : « ماركور » ، وللتناسل إلٰهة : « ڤينوس » ، وللشهوات إلهة : « زهرة » ، وللنار إلهة : « زهرة » أُخرى !

وللثروة والغنى إله : « بلوطس » ، وللثمار إلهة : « برمونة » ، وللأزهار إلهة : « أكلورة » ، وللألعاب والملّذات والضحك إله : « مومس » !!

ويجمع المؤرخون أن اليونان توسعوا جداً فى تعدد الآلهة ، فجعلوا لكل شئ حسياً كان أو معنوياً إله . فالليل والنهار والطرق وجميع الأماكن لها آلهة ، والصفات الحميدة كالصدق والوفاء لها آلهة ، والصفات الذميمة كالحسد والخيانة لها آلهة ، إنهم مسرفون غاية الإسراف فى هذا المجال ولم يعصمهم عقل أو يضبط تصوراتهم فكر .

وتبع هذه التصورات الخرافية نماذج من الطقوس والسلوك الخرافى فى كل مظاهر حياتهم . وتبحث عن « الإله » الحق فى هذا الركام الأسطورى ، فلا تعثر له على أثر .

أُمة لها فى التاريخ « تاريخ طويل » قادها فكرها العقلى - إن صح هذا التعبير - للوثنية وعبادة الأصنام ، وعقيدة المُخَلِّص المصلوب خدمة للناس !!

*

* أرسطو وأوهامه :

من أشهر عقلاء اليونان وفلاسفتهم فيلسوفهم المعروف بـ « أرسطو » ، والمؤرخون - حتى المعاصرون منهم - معجبون بفلسفة « أرسطو » فى العقيدة الإلهية ، ويقولون : إنها بلغت الذروة فى التنزيه والتجريد والتوحيد ، ويُقدِّمون فلسفته فى هذا المجال على فلسفة « أفلوطين » إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وشيخ الفلاسفة الصوفيين عند علماء الغرب فى العصر الحديث ؛ لأن فلسفة « أرسطو » فيها نصيب من العقل والمنطق والتفكير المنظَّم ، أما فلسفة « أفلوطين » فهى عند المؤرخ الحديث إنما هى ضرب من ضروب التوهيم والغيبوبة ، فهى إلى العدم أقرب منها إلى الوجود .

ومع هذا فإن « أرسطو » صاحب العقل الكبير كان خطؤه فى العقيدة الإلهية أكثر وأفدح من صوابه . وحين تسير مع فلسفة « أرسطو » فى الإلهيات فلا تكاد تخطو بضع خطوات مع الصواب حتى تجد الرجل قد هوى من حالق ، وأن خطأه وباطله قد محا صوابه وحقه من أقصر طريق !

أصاب « أرسطو » حينما قال عن الإله : إنه كائن أزلى أبدى مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، وليته توقف عند هذا القول الذى أصاب عين الحقيقة فى النعوت الإلٰهية .

وأخطأ أرسطو حين قال : « ولا عمل له ولا إرادة ، وأنه لا يعقل إلا ذاته ، وأنه لم يخلق العالَم ، وأن مادة العالَم الأولى « الهيولى » ، بل مادة العالَم تحركت نحو الوجود شوقاً إليه ، وتعمل وتتحرك بما فيها من الشوق ، ولا يقال إنها من خلق الله . . » .

أراد أرسطو - بعقله الهائل النادر - أن ينزه الله فجرَّده من صفات الألوهية ، وقد سوَّغ له عقله - غير المعصوم - هذا التجرد ، فالإله - عنده - لا يعمل ؛ لأن عقله - عقل أرسطو - خَيَّل إليه أن العمل طلب لشئ . والله غنى عن الطلب ، فهو إذن لا يعمل !!

والإلَه - عنده - ليست له إرادة ! وقد خيل إليه عقله أن الإرادة نقص ؛ لأنها مقارنة بين أمرين أو أكثر ثم اختيار الأفضل والأصلح ، والله تستوى عنده الأمور فى العلم ، ولا يحتاج ؛ لأنه كامل كمالاً مطلقاً ، لمعرفة الفاضل من الأفضل ، أو الصالح من الأصلح !

والإلَه - عنده - لا يعقل - أى لا يعلم - إلا نفسه ؛ لأنه لو علم ما فى العالَم لزم اتصافه بما فيه . وفى العالَم نقص ، والله لا يوصف بشئ من النقص ؛ لأنه كامل !

وهكذا يهدم « أرسطو » ما بناه بعقله فى عقيدة الإله . يهدم بعقله ما بناه

بعقله ؛ لأن العقل - سواء فى ذلك عقل أرسطو وعقول غيره من العقلاء - لا يستقل بنفسه فى « الغيبيات » ، بل لا بد لجميع العقول من هادٍ يهديها فى هذا المجال .

لم يستطع « أرسطو » إذن ، وهو صاحب العقل الكبير ، والمنطق الذى دعاه أنه يعصم العقل من الخطأ فى التفكير ، لم يستطع هذا « الأرسطو » أن يُقدِّم للفكر البَشرى إلهاً يملأ القلوب ، ويقنع أرباب العقول ، ويهدى النفوس الحيرى إلى إله صمد تعنو له الجباه والوجوه ، ويُخَص بالعبادة والدعاء ، ويُلْجأ إليه فى المهمات .

إذ ما حاجة البَشر إلى « إلَه » غير خالق ، وغير مدبر ، إلَه معزول عن العالَم ؟! إلَه لا يدرى عن العالَم شيئاً ، ولا يهتم إلا بنفسه ؟! إله لا ينفع ولا يضر ؟!

وإذا كان « أرسطو » صاحب العقل - العالَمى - الكبير ، يقع فى هذه الأخطاء فى عقيدة الألوهية ، فما بالك بأصحاب العقول التى لم تبلغ مبلغ عقل « أرسطو » فى التأمل والبحث ؟! وقد دَلَّ تاريخ أصحاب العقول الكبيرة - غير أرسطو - على أنهم لم يكونوا أسعد حالاً من « أرسطو » ، منذ القِدَم ، حتى عصر النهضة فى أوروبا . فالتخبط والاضطراب هما السمتان البارزتان لدى أصحاب العقول « الحرة » التى أدارت ظهرها لهدى الله ، أو لم تكن تعرف من هدى الله شيئاً ، وتوهمت أنها قادرة على السير حتى النهاية فى هذا الطريق الوعر ، فتحطمت قوائمها وهى فى بداية الطريق .

* *

● البيئة الفارسية :

ظهرت فى البيئة الفارسية - قديماً - عدة اتجاهات دينية ، وهى بيئة مجوسية انحرفت عقائدها فى الألوهية ، فظهرت فيها ديانة زرادشت ، ومزدك ،

والمثنوية ، والدهرية ،، وتقوم هذه الديانات على التعدد « الإثنينى » ، أى يعتقدون بـ « وجود إلَهين اثنين مع اختلاف التسمية » :

فمرة هما : بزدان وأهرمن ، ومرة هما : النور والظلمة ، ويعللون ذلك بأن الخير له « إلّه » هو « بزادن » وأن للشر « إله » هو « أهرمن » ، وهما متساويان فى الأزلية ، وكانوا يعبدون « بزدان » ويطلبون منه الخير لأنفسهم ، أما « أهرمن » فيطلبون منه الشر لأعدائهم ، ومع هذا فإنهم كانوا شديدى الكراهية لأهرمن ، ويعبرون عن هذه الكراهية فيكتبون اسمه مقلوباً من الشمال إلى اليمين هكذا : « نمرهأ » ، ويقولون : إن الموجودات كلها صدرت عنهما ، وادعى أنه رسول موحى إليه .

وتنسب الزرادشتية عندهم إلى « زرادشت » أحد حكمائهم الذى توفى عام ٤٨٧ قبل ميلاد عيسى عليه السلام ، وكانوا يصفونه بأنه « المرسل الإلهى ، والحى المبارك ، والواحد الأبدى » !!

وكان الزرادشتيون يؤمنون بانتهاء العالَم ، وبقيام الأموات ، ويُدَان كل مخلوق بما كسبت يداه ، وأن الأشرار يذهبون بعد القيامة من الموت إلى مكان مظلم وعذاب أبدى ، والأخيار يذهبون إلى مكان نور وسعادة لا ينالهم شر إلى الأبد .

ومن هذا العرض الموجز ترى أن « زرادشت » خلط صواباً بباطل ، وأن باطله هدم صوابه .

أما « مزدك » فهو فيلسوف فارسى ظهر فى عهد الملك « كيقباذ » والد الملك « أنوشروان » ، ويقوم مذهبه على « الإثنينية » : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، ويفرق « مزدك » بينهما بأن النور يفعل بالقصد والإرادة والاختيار (عاقل) ، أما الظلمة فتعمل بالخبط والخلط (حمقاء) ، وأن النور عالِم مبصر ، والظلمة جاهلة عمياء .

ومن فلسفته قوله بأن سبب الشرور والفساد فى الأرض هما : الأموال والنساء ، ورأى أن القضاء على هاتين الآفتين يكون بإباحة النساء لجميع الرجال فلا يختص رجل بامرأة ، بل له أن يعاشر مَن شاء منهن !!

وكذلك جعل الأموال شركة بين الناس جميعاً كالماء والهواء !!

وبقليل من التأمل ترى أن « مزدك » عالج فساداً قليلاً بفساد هو وباء مستطير .

*

* وَهْمٌ خالص :

وعقيدة « مزدك » فى « الإلَه » وَهْمٌ خالص ، فقد صوَّره للناس بأنه : جالس على كرسيه كما يجلس ملوك الأرض ! وأن بين يديه أربع قوى يدبر بها شئون العالَم هى : الفهم ، والتمييز ، والحفظ ، والسرور . ويستعين بسبعة وزراء يعملون مع اثنتى عشر ذاتاً روحانية ! وأن مَن اجتمعت لديه القوى الأربع والوزراء السبعة ، والاثنتا عشر روحاً ارتفع عنه التكليف ، وصار ربانياً فى العالَم السفلى !!

وإلى جانب هذا الخلط الشنيع ظهرت فى فارس عقيدة الدهريين ، وهى ترادف الإلحاد فى إنكار إله للكون : خالق ومدبر . وتُبنى هذه العقيدة على أن المادة الكونية وُجِدت بقوة كافية فيها ، وأن الكون وُجِد بلا بداية ، وسيظل هكذا بلا نهاية !!

* * *

مرحلة ما بعد الرسالات

ومثل هذا الانحدار فى عقيدة الألوهية فى مصر وفى اليونان وفى فارس حدث فى كل البيئات قديماً ، حدث فى الهند ، وفى بلاد ما بين النهرين ، وحدث فى روما . ولم يسلم أى صاحب عقل من التخبط والتناقض والتخريف فى كل أمم الحضارة القديمة . فالصواب قليل ، والخطأ فاحش وكثير . . هذا فى المرحلة الأولى التى أسميناها « مرحلة ما قبل الرسالات » ، وفى « مرحلة ما بعد الرسالات » فإن العقول التى أدارت ظهرها لهدى الله وظنت أنها قادرة على فهم ما وراء الطبيعة لم تبتعد كثيراً عن أخطاء ما قبل الرسالات ، ولنضرب لذلك أمثلة سريعة :

١ – اليهودية :

ما أرسل الله إلى أُمَّة رسلاً مثلما أرسل إلى بنى إسرائيل ، فقد تعدَّدت رسلهم وأنبيائهم : موسى ، داود ، سليمان ، زكريا ، يحيى . . . إلخ ، ومع كثرة المرسلين إليهم ، وكثرة الكتب المنزَّلة تركوا هدى الله الذى بين أيديهم ، ووصفوا الله بغير أوصافه ، ونسبوا إليه الولد – « عزير » – وأشركوا معه آلهة أخرى بعد فترة توحيد لم تطل ، ونسبوا إليه النسيان والغفلة ، والخشية من خلقه ، وجعلوه « إلَهاً » لهم وحدهم من دون الخلق ، واتخذوا رهبانهم وأحبارهم أرباباً ، ووصفوه بالفقر والبخل ، كما وصفوه بالندم على بعض ما فعل !!

كل ذلك – وغيره كثير – حدث لما أعرضوا عن هُدَى الله ، وكتبهم المقدسة مشحونة بهذه النقائص والأباطيل ، ولولا ما أخذنا به أنفسنا هنا من الإيجاز لوضعنا أمام القارىء نصوصهم المقدسة التى لم يخل منها سِفْر من أسفارهم فى العهد القديم . فماذا أغناهم عقلهم فى هذا المجال ؟ لا شئ .

بل عقولهم هى التى أضلَّتهم حين لم يُخضعوها لنداءات الوحى الأمين . فالله رب العالَمين لا وجود له عندهم ، وإنما الموجود إلَه غريب الأطوار : إله متعصب حقود على العالَم ، محاب لليهود صالحهم وطالحهم ، وحتى إذا أدخل بعضهم النار فإنما يدخلهم لأيام معدودة !!

* *

٢ - النصرانية :

ورَّطت النصرانية نفسها منذ المجمع الأول المعروف بمجمع « نيقية » فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى ، حيث خلعوا على عيسى عليه السلام وصف « ابن الله » ، ثم جعلوه رباً وإلهاً ، ثم تتابعت المجامع بعد ذلك ، وفى كل مجمع يبتعدون خطوات طويلة عن رسالة المسيح السامية ، مقتفين آثار « بولس » الذى يعتبر هو المحرِّف الأول لرسالة عيسى عليه السلام .

فجعلوا الله ثالث ثلاثة : الابن ، والآب ، والروح القدس . ثم ألَّهوا أمه البتول مريم رضى الله عنها ، ونقلوا القيادة الكونية من السماء إلى الأرض متمثلة فى « البابوات » وأعوانهم ، وباعوا الجنة فى المزاد العلنى ، ومنحوا « الأشقياء » صكوك الغفران كأنها شركة أسهم تُباع وتُشترَى فى « بورصات الأوراق النقدية » .

ومن خلال تجربة شخصية ، بحثنا عن « الله الحق » فى مصادر النصرانية الأولى : « الأناجيل وأعمال الرسل » فلم نجده ؟ هل هو الآب أم الابن أم الروح القدس ؟ لا أحد يدرى ، ولن يدرى أحد ، اللَّهم إلا إذا عاد الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام إلى الوجود مرة أخرى ، ونسأل : ما الذى أودى برسالة المسيح عليه السلام إلى هذا المصير ؟ فيُجاب : إدارة الظهر لهدى الله فى مسائل العقيدة ، وإحلال التفكير الخرافى - بله

العقلى - محله ، ولن يستقيم لأهل الكتابين أمر حتى يعودوا إلى الوحى الأمين فى التوراة الخالصة ، والإنجيل الخالص . . ولكن هيهات ، ثم هيهات .

* *

٣ - بعض الفلاسفة الإسلاميين :

لا ننكر أن انحرافاً فى العقيدة الإلّهية حدث فى بيئات إسلامية ، ولكن - والحمد لله - أن هذا الانحراف لم يصب أصول العقيدة عند كافة المسلمين ، مثلما حدث فى اليهودية والنصرانية ، وإنما وقع فى طوائف محدودة ، منهم بعض الفلاسفة الإسلاميين ، وبعض المنسوبين إلى التصوف . وهذا الانحراف ظل معزولاً عن جماعة المسلمين ، الذين لم يرضوا بهدى الله بديلاً فى هذا المجال .

وتوخياً للإيجار نقصر حديثنا الموجز - هنا - على انحرافات بعض الفلاسفة الإسلامين دون غيرهم من شواذ الطوائف ؛ لأنهم - دون غيرهم - يصدرون فى دراساتهم عن المنهج العقلى الخاص . .

*

* انحرافات الفلسفة العقلية :

المنهاج الفلسفى العقلى ملئ بالاختلافات والتناقضات ، ومذاهب الفلسفة العقلية تكاد تتعدد بتعدد الفلاسفة أنفسهم ، وفى الفلسفة العقلية ليس غريباً ولا نادراً أن يهدم فيلسوف ما بنى فيلسوف آخر ؛ لأن طبائع العقول مختلفة ، بل إن الفيلسوف « الواحد » يختلف مع نفسه فى الموضوع الواحد .

هذه حقائق معروفة لدى الفلاسفة أنفسهم ، ويمكن لكل إنسان الإلمام بها إذا طالع مؤلفات الفلاسفة ، أو بعضاً منها .

وفى مجال العقائد الإلهية تباينت آراء الفلاسفة إلى حد فاحش ، ولدينا كتابان مشهوران يعطيان مثلاً واضحاً لتناقضات الفلسفة العقلية فى مجال العقائد الدينية ، هما :

الأول : كتاب « **تهافت الفلاسفة** » لأبى حامد الغزالى .

والثانى : كتاب « **تهافت التهافت** » لابن رشد .

أما الكتاب الأول فقد وقفه أبو حامد الغزالى على رصد أخطاء الفلاسفة الإسلاميين ، وأحصى لهم عشرين مسألة خطَّأهم فيها جميعها ، ثم فسَّقهم - أى نسبهم إلى الفسق - فى سبع عشرة مسألة ، وكفَّرهم - أو نسبهم إلى الكفر - فى الثلاث الأخرى . ومما رصده من أخطائهم :

* قولهم بقِدَم العالَم وأزليته ، وأنه ليس له بداية !

* قولهم بأبدية العالَم وخلوده ، وأنه ليس له نهاية !

* قولهم إن الله يعلم المخلوقات على سبيل الإجمال ولا يعلمها على سبيل التفصيل !!

* قولهم بأن العادة لا تُخْرَق ، ولذلك أنكروا معجزات الأنبياء لقيامها على خرق العادة كانقلاب العصا حية ، وانشقاق القمر !

* قولهم باستحالة البعث الجسمانى ، وإنما البعث يكون للروح لا للجسد !

* قولهم إن السموات أنفس حية ، وأنها تعلم كل الأمور كلياتها وجزئياتها !!

هذه صور ست من عقائد الفلاسفة توهَّموا صحتها عن طريق البحث والاستدلال العقلى البحت . ونضع بين يدى القارئ صورة من استدلالهم العقلى ليتضح كيف كان الفلاسفة يفكرون . .

فقد استدلوا على استحالة البعث الجسمانى فقالوا : إن الأجسام غير متناهية فى الكثرة ، وإن المكان متناه محدَّد ، فلو بعث الله الأجسام لضاق بها المكان ! فأين المكان الذى يتسع لهم فى جنة أو فى نار ؟!

هذا هو الدليل العقلى - عندهم - الذى استندوا إليه فى إنكار البعث الجسمانى !!

فجاء الإمام الغزالى وتعقب أدلتهم العقلية واحداً واحداً فى كل المسائل العشرين . وعلى طريقتهم فى البحث والاستدلال العقلى هدم الغزالى ما بنوه هم بعقولهم فى كتابه الموسوم بـ « تهافت الفلاسفة » .

*

*** تهافت التهافت :**

ثم جاء ابن رشد ، ووضع كتابه الموسوم بـ « تهافت التهافت » ، وتعقب ما كتبه الغزالى فى كتاب « تهافت الفلاسفة » ، وبالبحث والاستدلال العقلى هدم ابن رشد ما بناه الغزالى بالاستدلال العقلى كذلك !!

إن معنا - هنا - ثلاثة أعمال هى عمل عقلى خالص .

وأن كل عمل عقلى منها هدم الآخر !!

فالغزالى بالاستدلال العقلى هدم ما بناه الفلاسفة العقليون فى المسائل العشرين المرصودة فى كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وابن رشد بالاستدلال العقلى - كذلك - هدم ما بناه الغزالى فى كتابه « التهافت » ، أى قام ابن رشد بهدم الهدم ، ووسيلة البناء والهدم فى هذه الأعمال جميعاً هى : العقل !!

وهذا من أقطع الأدلة على نزع الثقة عن العقل حين يزج بنفسه فى مجال هو فاقد القدرة على السير فيه - وحده - بدون هادٍ يهديه ، وأن للعقل - كما خلقه الله - مجالات يعمل فيها بكل مهارة ، ويملك القول الفصل فيها . أما الغيبيات ، أو العقائد الدينية ، أو ما وراء الطبيعة . . فلها وسائل أخرى « العقل » لها تابع ومتلق ، فإن خرج العقل عن هذه الضوابط ضَلَّ أو هلك .

ولن يأمن العقل سلامة سيره فى هذا الميدان إلا إذا سار خلف أستاذه وهاديه ، وهو : وحى الله الأمين .

وقد سبق هذا الانحراف العقلى فى العقيدة الإلَهية انحراف أشنع وأضل ، فقد زعم السوفسطائيون - قديماً - أن الإنسان كان فى أول نشأته لا يعرف عن « الألوهية » شيئاً ، بل كانوا يعيشون فى فوضى ، إلى أن فكر بعض « العباقرة » فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية - لا أول لها ولا آخر - تسمع وترى كل شئ ، وتهيمن بحكمتها على كل شئ . ومن هنا نشأت فكرة الدين عموماً ، أى أن الدين لا حقيقة له سوى هذا الأصل الخرافى !!

* *

● سقطات العقل الحديث :

العقل هو العقل فى كل زمان ومكان : يصيب ويخطئ . والعقل المثقف الحديث له سقطات شنيعة فى مجال العقيدة والدين ، حين لم يهتد بوحى الله الأمين .

ففى القرن الثامن عشر هوى عقل « ڤولتير » إلى أسفل سافلين حين زعم أن فكرة « الألوهية » إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين وجدوا مَن يصدقهم من الحمقى والسفهاء .

وقد مهَّد « ڤولتير » - هذا - و« چان چاك روسو » للنزعة الإلحادية التى تزعمها « أوچست كونت » ، صاحب الفلسفة الوصفية - أو الواقعية - التى تنكر كل ما وراء الطبيعة أو الغيبيات ، ولا تؤمن بوجود شئ خارج نطاق المحسوس المادى !

ومن عقلاء القرن الثامن عشر فى أوروبا من آمن بالله خالقاً ولم يؤمن به مدبراً لشئون الدين ، وشبَّهوه بصانع الساعة الذى لا تصبح للساعة صلة به

بعد خروجها من حوزته ، ثم خطوا خطوة أخرى فشبَّهوا الكون بالساعة التى صنعت نفسها ، فهو - أى الكون - ليس فى حاجة إلى خالق ، وليس فى حاجة إلى مُدَبِّر . فالتقى الفلاسفة العقليون مع الفلاسفة الوضعيين فى نهاية المطاف ، وكفروا جميعاً بوجود الله أصلاً .

هذه الطوائف التى زاغ بصرها وعميت بصيرتها فى مجال العقيدة الدينية ، مهما اختلفت مناهجها ، فإنهم - جميعاً - كانوا من ذوى العقول ، ولم يكونوا « مجانين » ، وكلهم كان يرجم بالغيب فى تصور العقيدة الدينية ، حتى الذين آمنوا منهم بوجود الله أخطأوا خطأً عظيماً فى تصور صفاته ، كأرسطو والفلاسفة الإسلاميين . ومن أفظع سقطات العقل الحديث ما ذهب إليه « فريدريك نيتشة » من أنَّ الله قد مات - تعالى الله عما يقولون عُلُواً كبيراً .

فقل لى بربك كيف يكون العقل - وهذا حصاده - هادياً إلى عقيدة مُثْلَى فى الألوهية تقنع المؤمنين ، وتملأ وجدانهم رغبة ورهبة ، وتتجه إلى الله فى ثبات ويقين .

ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا « التخبط العقلى » فى العقيدة الإلهية ليس سمة كل العقول ، وإنما هى سمة عقول لم تُقم لهَدْى الله وزناً فى هذا المجال ، أو عقول نظرت فى العقيدة الإلهية ولم يكن لها رصيد من وحى الله الأمين .

والذى أوجزنا الحديث عنه من تخبط العقول وضلالها فى حقائق ما وراء الطبيعة دليل عظيم الشأن على أن الناس محتاجون إلى هدى الله ووحيه الأمين ودينه القويم فى شأن العقيدة الإلَهية ، وأنهم لا غِنَى لهم أبداً عن هذا الدين ليحمى العقل من الزلل ، ويأخذ بيده وينير له الطريق ، ويزيل الشبهات ، ويجلى له الحقائق خالصة نقية فيجئ الحق ، ويزهق الباطل .

* * *

العقيدة الإلهية فى الدين الخاتم

الدين الخاتم هو الإسلام ، وقد تحدَّث مصدره الأول - القرآن - عن الغيبيات ، ومنها العقيدة فى « الله » حديثاً كافياً شافياً ، قاطعاً لكل الشبهات ، مزيلاً لكل الأوهام ، دافعاً لكل الشكوك ، ماحياً لكل الأباطيل والخرافات .

ومن قبل تحدثت الكتب السماوية ، كالتوراة والإنجيل ، بمثل ما تحدَّث القرآن ، ولكن ما أصاب التوراة والإنجيل من تحريفات وتبديلات جعلهما فى صورتيهما الحاليتين بعيدين - كل البُعْد - عن الركون إليهما فى حقائق الإيمان ، وبذلك صار القرآن الأمين هو المصدر الوحيد للإنسانية جمعاء فى معرفة الله وصفاته الجليلة والجميلة معاً ، لا فيما اختص به الإسلام من بيان فحسب ، بل فى التصوير الأمين لما بلَّغته الرسل لأقوامهم ، ومنهم موسى وعيسى عليهما وعلى الرسول الخاتم صلوات الله وتسليماته . وإلى هذا المعنى يشير الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقُواْ إلا من بَعْد مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ من بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ من كِتَابٍ ..** ﴾ (١) .

إن ضياع أمانة الوحى فى الكتب السابقة على القرآن جعلت القرآن هو المصدر الوحيد لحفظ تلك الأمانة إلى يوم الدين : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (٢) .

---

(١) الشورى : ١٤ - ١٥ (٢) الحجر : ٩

وها هو ذا القرآن الأمين يصحح مسيرة التاريخ النبوى كله ، ويعلن أمانة الوحى من جديد ، وبخاصة فى مجال العقيدة التى تشعبت بها الأهواء على أيدى الأحبار والرهبان وأهل الزيغ فى كل زمان ومكان .

ومن الجدير بالذكر أن حديث القرآن عن العقيدة تناول ما سبق على نزوله من تحريفات ، وما لحق بعد نزوله من ابتداعات ؛ لأن ما جاء فى القرآن الأمين هو القول الفصل ، فكل ما خالفه - تقدَّم أو تأخَّر - فهو باطل مردود ، والشبهات التى برزت عن البحث العقلى المجرَّد متعددة ، بَيْد أن أهمها أربع شبهات هى :

الأولى : النزعة الإلحادية التى تنكر وجود الله أصلاً .

الثانية : ظاهرة التعدد والإشراك .

الثالثة : الإلحاد فى أوصاف الله عند بعض المؤمنين به من العقليين .

الرابعة : إنكار البعث الجسمانى .

وقد واجه القرآن هذه الشبهات جميعاً فدحضها وأبطلها ، وأقرَّ الحق فى أجلى صوره وأبهاها . وها نحن أُولاء نوجز الحديث عن مواجهة القرآن الحكيم لهذه الشبهات واحدة ، واحدة . .

● مواجهة القرآن للإلحاد :

من الحقائق التى ينبغى أن نكون على بصرٍ بها أن مسألة وجود الله لم يحتفل بها القرآن كثيراً مثلما احتفل بقضية التوحيد والبعث وصفات الكمال الواجبة لله . وليس مرجع هذا التقليل من قضية وجود الله ، كلا . بل مرجعه إلى أن قضية وجود الله لم يتعلق بها شك ذو بال ، فهى من الضروريات العقلية ، التى لا ينازع فيها إلا من أصاب عقله نقص فى الإدراك ، أو خلل فى الفهم .

لهذا نكتفى فى مواجهة القرآن لنزعة الإلحاد بالموقفين الآتيين :

الأول : آيتان من سورة إبراهيم عليه السلام :

يحكى القرآن الأمين طرفاً من محاورة الرسل وأقوامهم فى سورة إبراهيم فيقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ من بَعْدِهِمْ ، لا يَعْلَمُهُمْ إلا اللهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴾ [1] .

إن رد الرسل هنا يُفهم منه أن خصوم الدعوة لم يكونوا يَشُكُّون فى صحة الرسالات فحسب ، بل تعلق شكهم بوجود الله عَزَّ وجَلَّ ، فهم - إذن - ينكرون أمرين أولهما أعظم من ثانيهما :

* ينكرون وجود الله !!

* وينكرون صحة الرسالات !!

وإذا تعلق الإنكار بأمور أو أمرين غير مستويى الدرجة كان الأحكم والأبلغ فى رد هذا الإنكار أن يُقدَّم الأمر الأعظم من جملة الأمور التى تعلق بها الإنكار ، وهو - هنا - الإيمان بوجود الله تعالى . وهذا ما فعله الرسل ، فإنهم قالوا : أفى الله شك ؟ ولم يقولوا : أفى صحة الرسالة شك ؟ وهذا لأن الإيمان بوجود الله أصل الأصول فى الإيمان . ويتفرع عنه الإيمان بصحة الرسالة ، والإيمان بصحة الرسالة دون الإيمان بوجود الله لا يتصور وقوعه من عاقل .

---

(١) إبراهيم : ٩ - ١٠

وهذا الاستفهام : ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ ﴾ استفهام إنكارى معناه : ليس فى الله شك .

وقد ذكر الرسل - كما حكى عنهم القرآن الأمين هنا - دليل وجوب الإيمان بالله وهو : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، فالمخاطَبون لا ينكرون وجود السموات والأرض ، ولا يعرفون مُوجِداً لهما إلا أن يكون موجدهما هو « الله » ، هذا الدليل على قصره رد مفحم لمنكرى وجود الله حين يرجعون إلى أنفسهم ويتأملون حقيقة هذا الأمر .

ومن لطائف الإقناع فى هذا الدليل أن الرسل لم يقولوا للمخاطَبين - هنا - : أفى الله شك وهو خالقكم ، وهو دليل صحيح ؛ لأن خلق السموات والأرض أدخل فى باب الإقناع من خلق الناس ، وقد جاء هذا صريحاً فى قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴾ (١) .

*

الثانى : آية من سورة الطور :

وفى سورة الطور آية قصيرة وضعت منكرى وجود الله فى مأزق أضيق من ثقب الإبرة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ؟ (٢) .

إنَّ منكرى وجود الله كانوا حال إنكارهم لوجود الله موجودين وجوداً لا يمتارون فيه ، فاتخذ القرآن الحكيم من « وجودهم » مادة لإفحامهم وإلزامهم إما بقيام الحُجَّة عليهم ، وإما لانصياعهم للحق والإذعان له إن أرادوا لأنفسهم الخير فى الدنيا والآخرة .

---

(١) غافر : ٥٧ (٢) الطور : ٣٥

فقد سألهم عن وجودهم - الذى لا يمتارون فيه - عمن صدر هذا الوجود ؟

هل صدر عن لا شئ ؟ هذا مستحيل فى حكم العقل الصحيح .

أو كانوا هم الذين أوجدوا أنفسهم ؟ وهذا - كذلك - مستحيل فى حكم العقل الصحيح . إنهم كانوا قبل خلقهم معدومين ، فكيف يخلق المعدوم وجوداً ؟

ويستحيل - كذلك - أن يكونوا موجودين قبل وجودهم حتى يكون لهم تأثير فى إيجاد أنفسهم . فالشئ المعدوم لا يتقدم على نفسه بالوجود فيكون معدوماً موجوداً أو موجوداً معدوماً فى وقت واحد .

إن مواجهة القرآن الحكيم لنزعة الإلحاد هنا استنهضت العقل من سباته وأبصرته فى رفق وحنان الحق ماثلاً أمامه ، وقدَّمت له من البراهين ما يدعوه إلى الاقتناع والتسليم من أقصر طريق . والقانون العقلى الذى جعله القرآن وسيلة الإقناع هنا هو : « أن الشئ من الممكنات لا يصدر عن لا شئ » .

أو بعبارة أخرى : « أن كل فعل لا بد له من فاعل » ، وتطبيقاً على هذه القاعدة العقلية ، فإن العقول جميعاً تُرجِع كل شئ - الوقائع كبيرها وصغيرها - إلى فاعليها . فالبناء لا بد له من بانٍ ، والقتل لا بد له من قاتل ، والحفر لا بد له من حافر ، ولن تجد صاحبَ عقل يُسلِّم بأن عملاً ما مهما كان حدث بنفسه وليس له فاعل مختار أو مُكْرَه . فما بالك إذن بهذا الكون الضخم الفخم المنظم المحكم ، كيف يكون هذا البناء الشامخ الواسع الملئ بالحكم والأسرار ليس له فاعل عظيم جليل قادر مختار ؟

هذا ما واجه به القرآن نزعة الإلحاد أو إنكار وجود الله ، مع أن الإيمان بوجود الله من البدائه الفطرية المركوزة فى الطباع البَشرية .

* *

● أدلة الإيمان فى النظر العقلى الصحيح :

المنكرون لوجود الله من أصحاب العقول قِلَّة بالنسبة لأصحاب العقول المؤمنة بوجود الله . وأقوى دليل عقلى عند المؤمنين بالله من أهل الفكر والنظر العقلى هو « قانون السببية » الذى عبَّروا عنه بقولهم : « كل فعل لا بد له من فاعل » .

هذا القانون وإن عُرِف قبل نزول القرآن ؛ لأنه قانون فطرى ، فإن القرآن حين ذكره أضاف إليه قانوناً فِطرياً آخر هو قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ، فصار لدينا قانونان فطريان :

أحدهما قانون السببية وهو : « كل فعل لا بد له من فاعل » .

والثانى يمكن أن نسميه : « قانون الاستحالة » وهو : « أن المعدوم لا يُوجِد نفسه » ، وآية الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ تضمنت ذكر القانونين معاً كما ترى .

وبعد نزول القرآن ، وهدايته للعقل الإنسانى نظر كثير من الفلاسفة العقليين فى أدلة الإيمان بوجود الله ، سواء منهم مَن كان مسلماً أو غير . والذين صدق نظرهم فى هذه الأدلة ساروا مع هَدْى القرآن فيها ، حتى الذين لم يتخذوا من القرآن مبدأ لنظرهم . وفى ما يأتى بيان موجز لهذه الاتجاهات . .

* *

● العلامة ابن رشد :

ابن رشد عَلَمٌ من أعلام الفلسفة الإسلامية العقلية ، وقد هداه نظره فى القرآن لإثبات دليلين قويين على وجود الله :

الدليل الأول ، دعاه دليل : « الاختراع » ، وهو وثيق الصلة بقانون السببية المتقدم ذكره .

والدليل الثانى : هو دليل العناية . .

* دليل الاختراع :

والمراد بهذا الدليل عند ابن رشد هو هذا الخلق المبدع ، أى خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما . ويعتمد هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة على غير مثال سابق ، أى أوجدها الله من العدم . وهذا كما يقول ابن رشد ملحوظ بقوة فى خلق النبات والحيوانات والإنسان ، لأننا نشاهد وجودها بعد عدمها فى دورات منتظمة .

أما السموات والأرض فيُستدل على وجودها بعد عدمها بحركاتها وأنها مُسخَّرة مقهورة لخالقها .

أما الأصل الثانى : فيقول فيه ابن رشد : « إن كل مُخْتَرَع لا بد له من مُخْتَرِع » ، والنظر العقلى ينتهى من هذا إلى الإيمان بوجود الله .

*

* دليل العناية :

دليل العناية هو الدليل العقلى الثانى عند ابن رشد على ضرورة الإيمان بوجود الله . ومعنى هذا الدليل أن الله خلق الكون وما فيه للعناية بالإنسان وتدبير أمره ، فكل ما فى الكون فيه منافع للناس : السموات وما فيها من كواكب ، والأرض وما عليها من جبال رواسٍ وأنهار جوارٍ وبحار ومحيطات وزروع وأنعام . ويعتمد هذا الدليل عند ابن رشد على أصلين كذلك :

أحدهما : أن جميع الموجودات موافقة لمنافع الإنسان والعناية به .

والثانى : أن هذه العناية مقصودة لفاعل حكيم مختار ، هو الله .

ذكر العلامة ابن رشد هذا الكلام فى كتابه القيم : « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل المِلَّة » ، وقال : إن آيات القرآن الكريم تتنوع فى الدلالة على وجود الله ثلاثة أنواع :

نوع يتضمن التنبيه على دليل الاختراع .

ونوع يتضمن التنبيه على دليل العناية .

ونوع يتضمن التنبيه على الدليلين معاً .

فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [1] .

ومن النوع الثاني قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [2] .

ومن النوع الثالث قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [3] .

هذا ما انتهى إليه فيلسوف عقلى مسلم ، وهو موفق فى رصده هذين الدليلين وفى التمثيل لهما ، بَيْدَ أن القرآن فيه أدلة أخرى لم ينتبه إليها ابن رشد ، وليس هذا يضيره ، فحسبه ما اهتدى إليه رحمه الله .

* *

● الفلاسفة غير الإسلاميين :

وانتهى فلاسفة الغرب غير المسلمين إلى ما انتهى إليه ابن رشد الفيلسوف المسلم ومعه غيره من الفلاسفة الإسلاميين .

فحكماء أوروبا اعتمدوا ثلاثة أدلة عقلية على وجود الله وجوداً لا يتطرق إليه شك ، ودليلان من هذه الأدلة الثلاثة هما دليلا ابن رشد مع اختلاف التسمية .

---

(١) الطارق : ٥ – ٧ (٢) البقرة : ٢٢ (٣) غافر : ٦٤

* أول هذه الأدلة الثلاثة هو برهان الخلق ، ويسميه الأوروبيون « البرهان الكونى » ، ويُفسِّرون هذا البرهان بأن الكون ومَن فيه وما فيه كائنات تتوارد عليها الحركات ، وكل متحرك لا بد له من مُحَرِّك عظيم يؤثر فى الموجودات ولا يؤثر فيه هو شئ .

* وثانى هذه الأدلة هو « برهان القصد والغاية » ، وفى معناه يقولون : إن نظام العالَم يدل دلالة قاطعة على وجود إرادة محيطة به وبما فيه من الأسباب والغايات . وفى هذين الدليلين يلتقى فلاسفة الغرب الحديث مع حكماء الإسلام القدماء .

* أما الدليل الثالث فيسميه حكماء أوروبا « برهان الاستعلاء والكمال » ، فالله هو المحرِّك والمنظِّم المريد ، وصاحب المثل الأعلى ، غنى بنفسه عن غيره ، غير محتاج إلى شئ قط ، لا أول له ولا آخر .

وهذه الأدلة الثلاث نطق بها القرآن فى أجلى بيان ، وقد سبق التمثيل من القرآن للدليلين الأوَّلين ، أما الثالث فقد جاء فى القرآن الحكيم نصاً قاطعاً فى لفظه ومعناه : ﴿ **وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** .. ﴾ (١) .

وهكذا تكفَّل القرآن العظيم بهداية العقل وإمتاع الروح بإيراد الأدلة القاطعة على وجود الله العظيم ، وإنك لتجد هذه الأدلة مبثوثة فى آياته على نسق عجيب حكيم . يدركها الخواص بظواهرها وبواطنها ودقائق أسرارها ، ويدركها العوام بآثارها وظلالها ، فتتيسر أسباب الهداية أمام طُلابها ، وتقوم الحُجَّة على الملحدين والمعاندين .

* *

---

(١) الروم : ٢٧

● صفوة القول :

إن العقل السليم يهتدى بكل يُسر إلى أدلة وجود الله خالقاً ومدبِّراً . أما مَن أنكر وجوده فهم قِلَّة عميت قلوبهم وزاغت أبصارهم ، وطُمِست عقولهم ، وأن الاعتقاد بوجود الله حقيقة فطرية أدركتها الأمم البدائية ، وعبَّرت عنها فى مسميات مختلفة ، حتى إذا جاءت الرسل جلَّتْ أمر هذه الحقيقة بكل وضوح ، مستعينة فى تجليتها بآيات الله فى الكون وفى النفس ، لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل .

* * *

● مواجهة القرآن للإشراك والتعدد :

الإشراك والتعدد يبدوان فى ظاهر الأمر مترادفين ؛ أى هما لفظان يدلان على معنى واحد ، بَيْد أن الأمر خلاف ذلك ؛ لأن الإشراك ملحوظ فيه معنى الإيمان بالله مع إشراك غيره فى الألوهية معه سبحانه عما يقولون .

أما التعدد فأعم من الإشراك ، لأنه يشمل الإشراك ، ثم يختص بظاهرة تعدد الآلهة فى العقائد الوثنية التى لا تؤمن بالله ، وقد مرَّ بنا الحديث عن هذه الظاهرة عند اليونانيين القدماء ، وعند الهنود ، وعند قدماء المصريين ، وعند الرومان .

والإشراك يكاد يختص ببعض الأديان الكتابية . فاليهود جعلوا « عُزيراً » ابناً لله - سبحانه - ثم توَّسعوا فى اتخاذ أحبارهم أرباباً من دون الله !!

والنصارى شاعت عند جماهيرهم عقيدة « التثليث » : الآب ، والابن ، والروح القدس .

ولم تسلم البيئة العربية قبيل نزول القرآن من عقيدة الإشراك التى سرت إليهم من الأمم الأخرى ، فعبدوا الأوثان والأصنام آلهة مع الله ، وسوَّل لهم

الشيطان سوء عملهم فرأوه حسناً ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إلَى الله زُلْفَى ﴾ (١) .

والإشراك والتعدد من أكثر صور الكفر وجوداً وشيوعاً ، ولهذا فإن القرآن الكريم حينما واجه هذه الظاهرة وقف أمامها طويلاً ، وتصدَّى لها كثيراً فى سور ومواضع متعددة من آيات الذكر الحكيم . وبدهى أننا فى هذه الرسالة الموجزة سنكتفى بما قَلَّ ودَلَّ من الآيات التى أحالت عقيدة التعدد والإشراك إلى وَهْم من الأوهام ، وأقام عقيدة التوحيد مقامها باعتبارها حقيقة « عقلية » خالصة . وإليك البيان :

● دليل عقلى قاطع :

دلائل التوحيد ونفى الشرك والتعدد كثيرة جداً فى القرآن الحكيم ، وكل تلك الدلائل تتجه إلى العقل فتبسط له القول أحياناً ، وتوجزه أحياناً أخرى ، ومن المواضع التى أوجز القرآن فيها دلائل التوحيد ونفى الإشراك والتعدد فى أى صورة كان قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (٢) .

تشير الآية الأولى إلى ظاهرة تعدد الآلهة فى أوهام مَن يدَّعُونها .

ثم تأتى الآية الثانية فتسوق دليلاً عقلياً قاطعاً على صحة عقيدة التوحيد وبطلان ما عداها .

أما الآية الثالثة فتقرر حقيقة ظاهرة لا يرتاب فيها أحد حتى دعاة الإشراك والتعدد أنفسهم .

---

(١) الزمر : ٣ (٢) الأنبياء : ٢١ - ٢٣

وفحوى هذا الدليل العقلى هو هذا النظام الكونى المطرد : السماء فوقنا وفيها الكواكب السيَّارة فى نظام محكم لا يتخلف منذ خلقت ، والأرض تحتنا وفيها الأنهار والمحيطات والبحور والزروع وعليها نعيش ، أجيال تولد ، وأخرى تموت ، وقدر لله نافذ لا يُصَد ، وقدرة قاهرة لا تُرَد ، وأسرار كونية لا يحيط بها علم إلا علم الله الواسع .

هذا النظام دليل قاطع على تفرد منشئه وخالقه ومدبره ، ولو كان معه آلهة - كما يقولون - لفسد نظام السموات والأرض ومَن فيهن وما فيهن ، نتيجة للتصارع بين الآلهة . .

هذا يخلق وهذا يميت ، وهذا يرزق وهذا يفقر ، وهذا يُنزِّل الغيث وهذا يرفعه ، هذا يشرق الشمس وهذا يردها إلى مشرقها ، هذا يُرسى الجبال وهذا ينسفها ، هذا يُجرى الماء فى الأرض وهذا يجففه ، هذا يجئ بالصيف وهذا يمحوه تواً ويجئ بالشتاء ، وثالث يجىء بالربيع ورابع يجئ بالخريف !!

صُور من التناقض والاضطراب والفساد لا حصر لها ، والصراع هو شأن كل القوى المتساوية ، ولكننا لا نشاهد فى الكون إلا نظاماً واحداً مطرداً منذ خُلِق . وهذا هو دليل التوحيد والتفرد فى الكمال والجلال لقيوم السموات والأرض .

هذا هو « الله » ذو الجلال والكمال ، يفعل ما يشاء فلا يسأله أحد لماذا فعل ؟ أما غيره من الخلق فهم مخلوقون ومقهورون له : يسألهم عما فعلوا وما تركوا ؛ لأنه المهيمن وإليه المصير .

بهذا الدليل العقلى القاطع تستقر عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب ، وتذهب أوهام الشرك والوثنية فى كل صورة من صورها أدراج الرياح .

* *

• دليل عقلى ثان :

ومن الأدلة العقلية على نفى الشرك والتعدد قوله سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَه بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [(١)] .

صُدِّر هذا الدليل بنفى اتخاذ الله ولداً ، ونفى أن يكون معه إله ، ثم قرن هذا النفى بدليله العقلى الذى فحواه :

لو كان له ولد أو كان معه إله لوقع الصراع بينهم ، فيذهب كل إله بما خلق، ويعلو بعضهم على بعض ، ولدُمِّر الكون تدميراً ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فثبت أن خالق هذا الكون واحد أحد ، ليس له شريك ولا ولد .

إذن . . فماذا يطلب العقل بعد هذا من أدلة على نفى الشرك والإقرار بعقيدة التوحيد ، التى تنطق بها كل آية فى الكون ؟ لقد صدق الشاعر الذى قال :

وفى كل شئ له آيــة   تدل على أنه الواحد

* *

• المطالبة بدليل للشرك :

ومن مواجهة القرآن لإبطال الشرك بالله مطالبة المشركين بدليل على شركهم، وقد جاءت هذه المطالبة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [(٢)] .

---

(١) المؤمنون : ٩١   (٢) الأحقاف : ٤

فى هذه المطالبة تيئيس للمشركين من شركهم . فهذا الشرك دعوى يدَّعونها ، وكل دعوى لا بد لها من دليل .

فطالَبهم أولاً بأن يُعيِّنوا لآلهتهم المدعاة نصيباً خلقوه من الأرض فيقولوا : هذا الجزء خلقه آلهتنا ، ولو قالوا لكذبوا ؛ لأنه ادعاء لا بد له من دليل كذلك .

ثم طالبهم - ثانياً - أن يثبتوا أن لآلهتهم شركاً فى السموات ! ولو قالوا : إن لهم شركاً فيها لكذبوا - كذلك - لعجزهم عن الدليل .

ثم تخفَّف معهم فطالبهم أن يأتوا بواحدٍ من اثنين :

إما كتاب نزل قبل القرآن صرَّح بأن لغير الله خَلْقاً فى الأرض ، أو شركاً فى السموات . .

فإن عجزوا فليأتوا بأثارة من علم صحيح تثبت شيئاً من تلك المدعيَّات .

فإذا عجزوا - وهم عاجزن لا محالة - لزمتهم الحُجَّة فبطل الشرك وثبت التوحيد .

إن فى هذه الآية محاصرة للمشركين من كل جهة ، وهداية للموحدين من كل جهة كذلك . وما أصدق الشاعر الذى قال :

والدعاوى ما لم يقيموا عليها　　　بيِّنــــات أبناؤهــــا أدعيــاء

* *

● مثل من أنفسهم :

مواجهة القرآن - فيما تقدَّم - منصبة على بطلان عقيدة الإشراك والتعدد بوجه عام ، وفى كل صورة من صوره .

والآن نحن أمام دليل عقلى آخر يواجه نوعاً خاصاً من الشرك ، وهو ما شاع عند مشركى العرب الذين عبدوا أصناماً وأوثاناً مع إيمانهم بالله ، مدَّعين أنهم يعبدونهم كوسطاء بينهم وبين الله يُقرِّبونهم إلى الله زلفى .

ومعنى هذا أنهم يُثبتون لأصنامهم وأوثانهم سلطاناً مع الله عَزَّ وجَلَّ ، فواجه القرآن هذه الظاهرة « الشركية » مواجهة حكيمة مؤدّاها الإقناع العقلى الناتج عن دليل واقعى محسوس ومشاهَد ، فقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (١) .

هذه الآية الحكيمة تمثل دوراً فى الدعوة بالوسائل السلمية لنبذ شبهة الإشراك ، وتمكين عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب ، فهى تُرقِّق المشاعر وتُهذِّب الوجدان ، وتفتح القلوب الغُلْف ، وتخاطب العقول المستنيرة وتضع أمامها الحقائق فى رفق ولين ، لتقفز منها - بعد أن تتأملها - إلى الحق الذى لا مفر منه ، وتسد - بذلك - ثغرة من المنافذ التى ينفذ منها الشيطان إلى طوايا النفوس فيملأها أوهاماً وأضاليل ، فالمشركون - كما حكى القرآن عنهم - يتذرعون فى عبادتهم للأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله ، جاء ذلك صريحاً فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ من دُونِ الله ماَ لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ..** ﴾ (٢) .

وهم بهذا يرفعون أصنامهم إلى درجة أن يكونوا نافذى الكلمة عند الله .

هذا الاعتقاد الضال تواجهه آية الروم السالفة الذكر مواجهة هادئة ، ولكنها قوية السلطان ، بالغة التأثير :

فالمثل المذكور فيها منتزَع لهم من أحوال أنفسهم ، كما قال سبحانه : ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ .

---

(١) الروم : ٢٨ (٢) يونس : ١٨

أما صورة المثل فقد استهلّت باستفهام إنكارى هكذا : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

أى : هل لكم من عبيدكم الذين تملكونهم شركاء فى ما آتيناكم من أموال تخافونهم إذا تصرفتم فى أموالكم دون مشورتهم أن يغضبوا عليكم ويردوا تصرفاتكم التى تصرفتموها فى أموالكم بغير مشورتهم ، كما تخافون أنفسكم إذا شارك بعض أحراركم بعضاً آخر من الأحرار ؟ إن كان ذلك واقعاً فعلاً فى حياتكم فيصح أن الأصنام تدفع عنكم ما يُراد بكم من عذاب الله .

أما إذا لم يكن واقعاً ، وأنكم لا تقيمون وزناً لعبيدكم فى كل تصرفاتكم ، فكذلك الله لا يخشى أحداً من مخلوقاته ، فليس للأصنام عنده شفاعة ، ولا يستطيعون أن يردوا من قضاء الله شيئاً : ﴿ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

لقد وضع هذا المثل المشركين أمام باطلهم وجهاً لوجه فما عساهم أن يقولوا ؟ إن قالوا : لنا شركاء مما ملكت أيماننا ؛ كابروا وخدعوا أنفسهم ، وإن قالوا : ليس لنا من عبيدنا شركاء ؛ لزمهم القول ببطلان الشرك ، ولم يبق أمامهم إلا التوحيد الخالص ، إن أرادوا لأنفسهم الخير ، وإن لا فقد لزمتهم الحُجَّة ، وكانوا من حصب جهنم هم لها واردون ، وفيها خالدون .

لو لم يكن فى القرآن إلا هذا القدر من مواجهة شبهة الإشراك بالله - سبحانه - لما كان للشرك أمامها مثقال ذَرَّة من صدق ، فما بالك والقرآن حافل بصور مواجهة الشرك والتصدى له مئات المرات ، فى أساليب بيانية رائعة ؛ وحجج عقلية وعلمية قاطعة .

وفى كل موضع من مواضع المواجهة ، يهدى القرآن العقول ، وينير لها الطريق ، حتى لكأنها تشاهد الحق عَيَاناً جهاراً . ولولا هدى الله فى كتابه

---

(١) الأنبياء : ٢٣

العزيز لطال الصراع فى هذا الميدان ، الذى لا يملك القول الفصل فيه إلا الوحى الأمين .

إن العقيدة الحقة ، فى الله جاء بها وحماها القرآن العظيم ، وإنك لن تجد على وجه الأرض موئلاً لعقيدة التوحيد - بعد أن حُرِّفت أمانة الوحى من قبل - إلا القرآن ، والقرآن وحده .

❊ ❊ ❊

• مواجهة القرآن للإلحاد فى صفات الله :

اضطرب التفكير العقلى اضطراباً بالغاً فى تصور صفات الله ، وكان مما رصدناه من مظاهر ذلك الاضطراب ما مرَّ بنا من قول « أرسطو » أن الله لا يعقل إلا ذاته ، وأنه لا يعلم الكليات ولا الجزئيات ، وإذا التمسنا لـ « أرسطو » بعض العذر فى هذا الاضطراب ، فإن الفلاسفة الإسلاميين لا نملك لهم أدنى عذر حين جاروا « أرسطو » فى بعض ما قال ؛ لأن « أرسطو » اجتهد ولم يكن لدى قومه رصيد من هدى الله . أما الفلاسفة الإسلاميون فكان وحى الله الأمين ماثلاً بين أيديهم فأداروا له ظهورهم وخالفوه ، وإن أجروا تعديلاً ملموساً على مذهب « أرسطو » .

قال « أرسطو » : إنَّ الله لا يعلم الكليات ولا الجزئيات ، ولا يعنيه من أمر الكون شئ : لا تدبير ولا إحياء ولا إماتة !

فجاء الفلاسفة الإسلاميون وتابعوه على أنَّ الله لا يعلم الجزئيات ، وخالفوه فى أنه يعلم الكليات فحسب .

أخطأ « أرسطو » وأخطأ الفلاسفة معاً ، وإن تفاوتت درجات الخطأ بينه وبينهم ، فالله فوق ما قالوا وما تصوَّروا . وحديث القرآن فى تقرير صفات الله قاطع لكل هذه الأوهام .

وحسب طُلاب الحق فى عقيدة الألوهية أن يقرأوا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

إنَّ الكون كله : كلياته وجزئياته مهما تناهت فى اللطف والصغر معلومة لله ، قبل أن تكون ، وحال أن تكون ، وبعد أن تكون .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

وتأمل الإعجاز العلمى فى : ﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ ﴾ ، أى من مثقال الذرِّ ، فقد كان العلم يعتقد أن « الذرَّة » هى أصغر حجم فى الوجود ، ثم تطور العلم وتمكن من تحطيم « الذرَّة » حتى تصير شعاعاً ، فجاء القرآن الكريم وأشار إلى هذا التطور العلمى فى شأن « الذرَّة » وقرر أن علم الله بالكائنات يعلم دقائق الأشياء وعظائمها صاعداً من « الذرَّة » إلى ما هو أكبر منها ، ونازلاً من « الذرَّة » إلى ما هو أصغر منها مهما تناهت فى الصغر وإن صارت شعاعاً وضوءاً .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

أو يقرأوا قوله تعالى حكاية عن قول لقمان الحكيم لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن

(١) الأنعام : ٥٩ (٢) يونس : ٦١ (٣) الحديد : ٤

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٢) .

أو يقرأوا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

هذا هو علم الله المحيط بالوجود كله ، كلياته وجزئياته : فلن يقع شئ فى الوجود إلا بعلمه ، فانظر ما بين حقائق الوحى وأوهام العقل غير المهتدى بالوحى من فروق ، وإنما وقع العقل فى ما وقع فيه من أوهام ؛ لأنه تخطى دائرة عمله وخاض فى ميدان لا بد له فيه من هادٍ يهديه ، ورائد يأخذ بيده ، وهو الوحى الأمين .

ولو كان العقل - وحده - هو وسيلة البَشر لمعرفة الله تعالى وجوداً وصفاتاً لتفرَّقت بهم السبل ، ولسيطرت عليهم الحيرة ، وكانوا كمن يريد عبور محيط هادر لا تحده الأبصار بواسطة حزمة من الحطب لا تلبث أن تفرقها الأمواج ، وتتقاذفها الأعاصير ، فكان من لطف الله ورحمته بعباده أن أرسل رسله ، وأنزل عليهم الكتاب هادياً إلى التى هى أقوم من أمور الدنيا والدين .

* *

---

(١) لقمان : ١٦ (٢) سورة ق : ١٦ (٣) المجادلة : ٧

● مواجهة القرآن لإنكار البعث الجسمانى :

الإيمان بالبعث من كبريات قضايا الإيمان المنجى ، وحين تناول القرآن الحكيم عرض هذه القضية تصدَّى لخطأ جسيم وقع فيه العقل المجرَّد منذ فجر التاريخ النبوى ، وهو إنكار البعث جملة وتفصيلاً .

وبعد نزول القرآن الكريم وقع بعض الفلاسفة الإسلاميين فى خطأ قريب الشبه بالخطأ القديم ، فقد أنكر هؤلاء الفلاسفة بعث الأجسام وقصروا البعث على الأرواح ، وشُبهتهم التى استندوا إليها فى إنكار البعث الجسمانى ، غير الشبهة التى استند إليها الأقدمون فى إنكار « البعث » على أى كيفية كان : جسمانياً أو روحياً ، أو هما معاً .

والقرآن فى مواجهته لهذه الظواهر أزال كل الشبهات التى استند إليها الفريقان معاً ، ومهَّد الطريق للإيمان الخالص من كل شائبة بعقيدة البعث ، وهو لم يفرض هذه العقيدة فرضاً ، وإنما أظهرها فى صورة بدهية سائغة تتقبلها العقول بكل يُسر وسهولة .

* *

● شبهة منكرى البعث كلية :

ذكر القرآن الأمين شبهة منكرى البعث كلية - جسمانياً وروحانياً - فى مواضع متعددة ، وبيَّن فى عبارات قصيرة بليغة فساد تلك الشبهة ؛ لإقامة الحُجَّة على المنكرين المعاندين ، ولتثبيت عقيدة المؤمنين وحمايتها من وساوس الشيطان . .

ومن المواضع التى ذكر القرآن فيها شبهة منكرى البعث كلية قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١) .

---

(١) الرعد : ٥

وقوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (١) .

ظاهر من حكاية القرآن لأقوالهم أنهم يرون البعث مستحيلاً عقلياً بعد أن يموتوا ويصبحوا عظاماً بالية ، وتراباً متناثراً . هذا ما يدل عليه قولهم الذى تقدَّم ، وفى مواضع أخرى يضيفون إلى هذا الاستدلال شبهة أخرى فرعية ، يؤكدون بها رأيهم فى نظرهم ، فقد حكى عنهم القرآن الكريم قولهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُواْ بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقولهم : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَن قَالُواْ ائْتُواْ بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

هذه الشبهة الفرعية تتلخص فى دعواهم أمام الرسل : أن يبعثوا آباءهم إن كانوا صادقين فى أن الله سيبعث الموتى من قبورهم ، وهذا تكذيب منهم بالبعث ، وكفر بالحياة الآخرة .

وقالوا فى موضع ثالث فى الآية الآتية : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ..﴾ (٤) .

كما حكى عنهم القرآن فى موضع آخر كفرهم بالحياة الآخرة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. ﴾ (٥) .

---

(١) المؤمنون : ٣٥ - ٣٧ (٢) الدخان : ٣٤ - ٣٦ (٣) الجاثية : ٢٥
(٤) النحل : ٣٨ (٥) سبأ : ٣

وقال سبحانه حاكياً عنهم : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ .. ﴾ (١) .

إذا نظرت فى مجموع هذه الآيات خلصت إلى أن استحالة البعث عند هؤلاء الكفار استحالة عقلية بنوها على أصل وفرع :

الأصل : هو استحالة إعادة الحياة بعد الموت وما يعترى الأجسام من فناء وتبدُّل .

والفرع هو : لو كان البعث ممكناً فَلِمَ لم يُبْعث آباؤهم بعد موتهم ؟ ثم انتهت عقولهم إلى أن دعوى البعث أسطورة من أساطير الأوَّلين !!

* *

● صورتان من المواجهة المفحمة :

أبطل القرآن الحكيم شبهات منكرى البعث ، وقضى عليها قضاءً مبرماً . وتوخياً للإيجاز ، نكتفى بذكر صورتين للمواجهة المفحمة وردتا فى القرآن العظيم .

* الصورة الأولى :

﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٢) .

من منهج القرآن الأمين حين يتصدى لدعاوى خصوم الدعوة أن يذكر أقوالهم وشبهاتهم بكل أمانة وصدق ، ثم يكر عليها فيجعلها وهماً من الأوهام ، وفى هذه المحاورة ذكر القرآن شبهة منكرى البعث الذين استندوا فى هذا الإنكار إلى استبعاد إعادة الحياة بعد صيرورة الميت عظاماً ورُفاتاً ، ثم

---

(١) التغابن : ٧

(٢) الإسراء : ٤٩ - ٥١

يقول لهم فى بداية المواجهة : ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ .

استبعدوا البعث وقد صاروا عظاماً ورُفاتاً . هذه شبهتهم ، والعظام والرُفات مادتان للإنسان وليستا غريبتين عليه ، فدعاهم القرآن أن يكونوا حجارة أو حديداً ، لأن الحجارة والحديد مادتان غريبتان عن الإنسان ، أو يكونوا أى خلق آخر لا صلة له بما كانوا عليه وهم أحياء . قال الله لرسوله أن يقول لهم هذا ، فإذا قالوا له : مَن يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً ، أو أى خلق آخر مغاير لحقيقتنا من كوننا عظاماً ولحماً ودماً ؟ كان الجواب : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

هذه الجملة المكونة من أربع كلمات قصار نسفت شبهاتهم نسفاً ولم تبق لها أى أثر .

فهم قد استعظموا إعادة الحياة إليهم ، وقد كانوا أحياء لهم أصل فى الوجود ، فكيف يعجز مَن خلقهم أول مرة من العدم عن إعادة الحياة إليهم بعد أن كان لهم وجود ظاهر ، ومثال محسوس ؟

القرآن - هنا - يضع أمامهم حقيقة من حقائق العقل يُسلِّم بها ولا يملك أدنى شبهة لعدم التصديق بها ، فالعقل لا ينكر على مَنْ صنع شيئاً ثم زال أن يعيده مرة أخرى ؛ لأن صورته حاضرة فى ذهنه ، وقدرته قد مكَّنته من صنعه أولاً . فالإعادة - إذن - أيسر وأهون .

فلو أن إنساناً رسم شكلاً هندسياً بديعاً ، ونحن ننظر إليه وهو يرسمه ، ثم محاه وقال : سأرسمه مرة أخرى كما كان ، فإننا لا نشك فى قدرته على رسمه بدليل أنه رسمه فى مرة سابقة .

أو قام آخر بحل معادلة رياضية معقَّدة ، ثم محا ما كتب وقال : سأعيد

الحل مرة أخرى ، فمَن يملك تكذيبه فى هذه الدعوى ؟ لا أحد يملك ذلك من العقلاء إلا مَن أصيب بخلل فى عقله .

وهكذا كان قوله تعالى : ﴿ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ دليلاً عقلياً مفحماً أبلغ ما يكون الإفحام ، إنَّ قدرة الله على الخلق الأولَ هى دليل قدرته على الخلق الثانى ، هذا هو حكم العقل السليم ، فهل - بعد هذا - يصبح لمنكرى البعث حيلة فى الاستمرار على الإنكار ؟ كلا . . وألف ألف كلا .

وهكذا ينسف القرآن فى هذه المواجهة الوجيزة أباطيل المبطلين ، ويُلزمهم الحُجَّة ، ويذرهم فى غيهم يعمهون .

* *

* الصورة الثانية :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ضارب المثل فى الآية هو العاص بن وائل ، جمع عظماً وأتى به رسولَ الله ﷺ ثم فتت العظم وقال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » ، ثم نزلت الآيات من آخر سورة يس .

استبعد هذا الكافر إحياء الموتى وقد بليت العظام ، فجاءت الآيات المذكورة تدحض شبهته بدليل عقلى فطرى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ

---

(١) يس : ٧٨ - ٧٩

وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

صورة هذه المواجهة تتفق فى المبدأ العام مع الصورة الأولى ، إذ هما معاً تضعان أمام العقل الدليل والبرهان المقنع على أنَّ الله قادر على إحياء الموتى بدليل أنه خلقهم أولاً ولم يكن لهم وجود ، فكيف يعجز أو يستحيل عليه إحياؤهم مرة أخرى بعد أن كان لهم وجود ومثال محسوس ؟

وتضيف هذه الصورة دلائل أخرى تتضافر على إقناع العقل بصحة البعث ، وتمحو شبهات منكريه .

وهذه الدلائل كما جاءت فى الآيات :

١ - فى الآية التى صوَّر القرآن فيها شبهة منكر البعث جاءت هذه العبارة الحاسمة البليغة : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ . . أى أن ضارب المثل حين استبعد على الله إحياء الموتى نسى أن الله خلقه وجعله بَشراً سوياً . فكونه مخلوقاً لله من العدم وبدون سبق وجود دليل قاطع على صحة الإحياء مرة أخرى ، ولو كان هذا المنكر للبعث تأمل هذا الواقع لأقلع عن إنكاره . وفى هذا تعريض بغباوة المنكر الذى حكى القرآن الأمين قوله .

٢ - أن الله قادر على كل خلق ، وليست قدرته ولا علمه مقصورين على خلق الإنسان وحده .

٣ - وأن من عجائب خلقه أن جعل لعباده من الشجر الأخضر ناراً ، والخضرة والنار ضدان .

---

(١) يس : ٧٩ - ٨٣

والآية تشير إلى حقيقة من حقائق العلوم التى اكتشفت بعد نزول القرآن بقرون طوال ، وهى تولد « الأوكسوچين » فى عملية التمثيل الضوئى من النباتات المختلفة ، و« الأوكسوچين » عامل مساعد على اشتعال النار ، وإذا خلا منه مكان فمن المحال أن تتولد النار .

٤ - أن الله خَلَق السموات والأرض ، وخَلْقهما أكبر من خلق الناس ، فكيف يعجزه إعادة الحياة إلى الموتى .

٥ - أن الله إذا أراد شيئاً كان ذلك الشئ بمجرد أن يقول له : كن .

٦ - أن الله هو المصرِّف للكون كله : إيجاداً وإعداماً ، وإحياء الموتى صورة يسيرة من تصرف الله فى كونه العظيم .

وهكذا يسَّر القرآن للعقول حقيقة الإيمان بالبعث ، ودحض فى رفق وحكمة جميع الشبهات ، ولم يدع لمنكرى البعث ذَرَّة من شبهة تصلح متمسكاً لهم فى كفرهم .

ثم يؤكد القرآن هذه الحقيقة فى مواضع أخرى منها : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢) .

ثم يقول : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

إن إعادة الحياة إلى جميع الموتى من لدن خلق آدم إلى قيام الساعة هى فى قدرة الله كخلق نفس واحدة وكبعث نفس واحدة .

---

(١) الأنبياء : ١٠٤ (٢) الأعراف : ٢٩ (٣) لقمان : ٢٨

﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إلا مَن شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (١) .

* *

● مواجهة القرآن لشبهة الفلاسفة :

أشرنا من قبل إلى أن الفلاسفة ينكرون البعث الجسمانى ، وأن شبهة هذا الإنكار عندهم غير شبهة الدهريين الذين فرغنا من دحض القرآن لشبهاتهم ، وأن الفلاسفة أنكروا البعث الجسمانى لأن الأجسام - كما قالوا - غير متناهية ، وأن المكان متناه لا يتسع لجميع أجسام الموتى إذا أعيدت إليها الحياة مرة أخرى ، وفى العنوان الذى أثبتناه : « مواجهة القرآن لشبهة الفلاسفة » شىء من التسامح لأن الفلاسفة ذهبوا هذا المذهب بعد نزول القرآن ، والمواجهة إنما تكون لموقف سابق على نزول القرآن أو مصاحب له . بَيْد أن فى القرآن آية لو كان الفلاسفة قد تأملوها لما ساغ لهم أن يقولوا ما قالوا . هذه الآية تدحض - مقدماً - ما قاله الفلاسفة بعد انتهاء عصر النزول . وهى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢) .

اختلف المفسِّرون فى تبديل الأرض والسموات ، والأمر عندهم يدور حول معنيين : إما تبديل فى ذوات الأرض والسموات ، وإما تبديل فى أوصافها . والمعنى يتسع لأبعد مما قاله المفسِّرون ، فليس بمنكر أن يراد بالتبديل المنصوص عليه فى الآية أن يكون الامتداد والتوسيع ، يدل على هذا قوله فى وصف الجنة : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) الزمر : ٦٨ (٢) إبراهيم : ٤٨ (٣) آل عمران : ١٣٣

فإذا كان عرض الجنة هو امتداد السموات والأرض فما بالنا بالطول كيف يكون ؟

كما جاء النص على التوسيع صريحاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١) .

وأيًّا ما كان الأمر فإن شبهة الفلاسفة فى إنكار البعث الجسمانى شبهة خفيفة الوزن ، بل هى وهم خالص وقع فيه هؤلاء المفكرون ذوو العقول الكبيرة . وهى - فى الوقت نفسه - دليل على أن العقل - وحده - ليس محل ثقة فى تصور الغيبيات أو ما وراء الطبيعة . فلا بد له - إذن - من هادٍ يهديه .

* *

● **تعقيب :**

علمنا مما تقدَّم كيف اضطربت العقول فى تصورها للأمور الغيبية وفى مقدمتها عقيدة الألوهية ، ثم البعث ، وقلنا : لو كانت وسيلتنا الوحيدة فى شأن العقيدة هى العقل لما اهتدت البَشرية إلى عقيدة صحيحة تطمئن لها القلوب ، ويتحقق بها الإيمان المنجى ، وتعيَّن أن يكون هادينا إلى العقيدة الحقة هو وحى الله : « الإيمان » ، وأن دنيا الناس لا بد لها من دين الله وهداه ، ليستقيم أمرها ، ويحيا مَن حيى عن بيِّنة ، ويهلك مَن هلك عن بيِّنة .

فعقيدة الألوهية لا تُعرف حق المعرفة إلا إذا اهتدى العقل بما أنزل الله ، فإذا زهد العقل فى وحى الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ ضَلَّ وأضلَّ .

وكذلك الحال فى عقيدة البعث ، فقد قاد الوحى الصادق العقل فيها ، وأزال كل شبهة تتعلق بها ، فقد وقفنا على حقيقة شبهات منكرى البعث قبل الفلاسفة الإسلاميين ، وأنهم كانوا يرونه مستحيلاً عقلياً .

---

(١) الذاريات : ٤٧

فجاء الوحى الأمين ، ووضع أمامنا حقيقتين بارزتين :

أولاهما : أن البعث مطلقاً : جسمانياً وروحانياً - من حيث حكم العقل - ممكن عقلياً ، وليس مستحيلاً عقلياً كما توهم الدهريون .

والثانية : أن البعث من حيث ورود الخبر الصادق به إنما هو واجب محتم الوقوع حسبما هو فى علم الله .

وبهذا يلتقى حكم العقل وحكم الشرع فى أخطر قضية من قضايا الإيمان .. بعد الإيمان بالله وكتبه ورسله .

وصدق الله العظيم القائل لخاتم الرسل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

* * *

---

(١) الشورى : ٥٢

المجال الثانى : التشريع

● **تقديم :**

عرفنا مما تقدم أن مجال العقيدة الدينية ، ليس مجالاً عقلياً خالصاً ، وأن العقل إذا انفرد بالبحث فيه كان خطؤه أكثر من صوابه ، وأن اختلاف العقول فى هذا المجال قد يؤدى إلى القول بالشئ ونقيضه ، وقد يشط العقل شططاً شنيعاً فى كثير من تصوراته للأمور الغيبية أو ما وراء الطبيعة . فكان لا بد للعقل من هادٍ يهديه ويرشده ، ذلك الهادى هو وحى الله الصادق الأمين . والآن نوجز الحديث عن مجال آخر لا يصلح العقل للخوض فيه إلا بقيادة الوحى الأمين . . ذلك المجال هو :

التشريع للدنيا والدين

بعد أن تمتلئ القلوب بالعقيدة الصحيحة تكون قد وضعت أقدامها على أول الطريق المستقيم ، ولكن لا بد من إنارة هذا الطريق بوضع مبادئ وقيم للسلوك الإنسانى ؛ لأن معترك الحياة ضخم وعميق ومعقد ، تختلط فيه الأمور وتتشابه ويصعب التمييز بينها ، فلا يدرى الإنسان ماذا يفعل ، ولماذا يفعل ؟ ولا ماذا يترك ، ولماذا يترك ؟ ومتى يكون العمل واجباً ، ومتى يكون مرجحاً ؟ ومتى يستوى طرفا العمل والترك ؟ ولا يدرى متى يكون ترك العمل واجباً ، ومتى يكون أنزل من الوجوب ؟

هذه المجالات الخمسة لم يؤهَّل العقل للانفراد بتحديدها ، وهو وإن أدرك بعضها جهل أكثرها ، وحتى فيما يُتاح له إدراكها فإن إدراكه فيها قاصر قصوراً ملحوظاً .

وقبل أن نُبيِّن الأهمية القصوى لدين الله فى مجال التشريع ، نعرض فى

إيجاز صوراً من التشريع العقلى الوضعى لتتضح لنا مدى حاجة البَشر إلى دين الله ووحيه ورسوله ، فى هذا المجال الحيوى المرتبط بالسلوك العملى لحركة الحياة الإنسانية .

* *

● صور من التشريعات الاجتماعية :

نقصد من التشريعات الاجتماعية ما يتصل بحقوق الإنسان ، وبدهى أن التشريع فى كل أُمة كان ظل عقيدتها ، وأن العقيدة الهابطة يصدر عنها تشريع هابط منحط مثلها ، لأن الظل لا يستقيم إذا كان مصدره معوجاً .

وقد حفظ لنا وعى التاريخ نماذج منحطة جائرة كانت تشيع فى بعض الأمم القديمة ومنها ما لا يزال شائعاً فى بعض البيئات المعاصرة :

*** الهند :**

الكتب المقدسة للهنود البرهميين تقسم الناس أقساماً متباينة فى الفضل والضعة ، فتذكر أن « براهما » خلق البرهميين من فمه ، والفم أطهر ما فى جسم الإنسان ، وخلق الكشتريين من ذراعه ؟ وخلق الفيسائيين من فخذه ، ثم خلق السودرائيين من قدمه .

وأن أفضل هذه الطبقات هم البرهميون ، يليهم الكشتريون ، ثم الفيسائيون !

أما السودرائيون فهم أحط الطبقات .

وبناء على هذا التقسيم وزَّعوا الوظائف على الوجه الآتى :

فالبرهميون - أعلى الطبقات - لهم الوظائف القيادية العليا .

والكشتريون لهم وظائف الحرب والقتال ورعاية الأمن .

والفيسائيون يختصون بفلاحة الأرض وتربية الماشية .

أما السودرائيون - أحط الطبقات - فلهم وظيفة واحدة هى أن يكونوا عبيداً

وخدماً للطبقات الأخرى . وهم أنجاس لا يجوز لمسهم ولا الأكل معهم ، وعلاقة المجتمع معهم علاقة المالك بالمملوك ، أو السيد بالعبد !!

*

*** اليونان :**

لم يكن التشريع اليونانى يختلف عن التشريع الهندى إلا قليلاً ، ففى التشريع الهندى البرهمى كانت الطبقات أربعاً . أما اليونانى فمكوَّن من طبقتين فحسب : طبقة عليا فاضلة هم اليونانيون وحدهم ، وطبقة سفلى منحطة هم مَن عدا اليونانيين من شعوب الأرض ، وبنوا هذا التقسيم على عقيدة كاذبة ، هى أن الآلهة خلقت فصيلتين من الناس :

فصيلة كرَّمتها بالعقل والإرادة والحرية ، وهم اليونانيون !

وفصيلة مسلوبة العقل والإرادة والحرية ، قريبة من الحيوانات العجماء ، وهم الشعوب الأخرى .

الفصيلة الأولى هى خليفة الآلهة فى الأرض ، والفصيلة الثانية خلقت لتكون عبيداً وخدماً للفصيلة الأولى .

الفصيلة الأولى لها الوظائف العليا الراقية ، أما الفصيلة الثانية فلا عمل لها سوى الأعمال الجسمية الشاقة .

*

*** الرومان :**

حذا التشريع الرومانى حذو الهندى واليونانى ، بَيْدَ أنه إلى اليونانى أقرب ، فالرومان هم الطبقة الراقية ، وغيرهم طبقة وضيعة ، وأنهم مخلوقون ليكونوا أرقَّاء وخدماً دائماً لأسيادهم الرومان .

*

* أهل الكتاب :

وأهل الكتاب - يهوداً ونصارى - رغم ما جاءتهم به رسلهم وكتبهم المقدَّسة فإنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولا يرون لغيرهم ما يرونه لأنفسهم - وبخاصة اليهود - من الفضل والقداسة .

*

*** العرب :**

ولم يسلم العرب - قبل الإسلام - من هذه التفرقة العنصرية ؛ فقد كانوا يرون غيرهم من الشعوب أمماً وضيعة ، ناقصة الإنسانية ، ويسمون مَن عداهم بـ « العجم » ، وينظرون إليهم نظرة احتقار واستخفاف ، وكانوا يضنون ببناتهم أن يتزوجن من غير العرب ، ويرون أن مصاهرتهم لغيرهم إهانة إلى قبائل العرب جميعاً ، وموقعة « ذى قار » دارت بين العرب والفُرس بسبب هذه المصاهرة .

هذه صور سريعة للتشريع الوضعى العقلى ، سقناها شواهد على أن التشريع ليس من مجالات العقل ، وأن العقل حين مارس أنماطاً من التشريع ضلَّ سواء السبيل ، والنظر العابر فى النماذج التى سقناها يرينا أن حقوقاً عظيمة للإنسان أهدرت فى هذا التشريع الذى لم يستند إلى خطة حكيمة فى هذا المجال . ومن تلك الحقوق التى أهدرت فى النماذج المذكورة ثلاثة حقوق هى سمة كل تشريع سام ، وهى :

١ - المساواة .　　٢ - الحرية .　　٣ - العدل .

وحين يخلو تشريع ما من هذه الحقوق ، يصبح نظاماً همجياً خالياً من كل احترام أو ولاء صادق . ويقوم فى لُحْمته وسُداَه على الأنانية والعنصرية ، ويحمل بين ثناياه عوامل هدمه وتدميره .

* *

● صور من تشريعات نظم الحكم :

مُنِىَ العالَم قديماً بأنماط شَتَّى من نظم الحكم ، وعلى الرغم من أن بعض الشعوب عرفت النظام الديمقراطى فإن واقع الحكم كان يتنافى مع هذا النظام ، فوراثة الحكم كانت هى السائدة بالنسبة للرئيس الأعلى ، أما معاونوه فكانوا يُختارون على أسس الحسب والنسب وليس على أساس الأصلح ، وكان ذو الحسب والنسب تُحفظ لهم الوظائف العليا بلا عمل يؤدونه ، والرئيس الأعلى - ملكاً أو أميراً - هو صاحب الحكم المطلق فى شئون الرعية ، سواء فى ذلك الدول المجوسية كالفُرس ، أو الكتابية كالروم والبلاد التى كانت تدور فى فلكها .

وأسوأ ما كان معروفاً فى تلك النظم أن « الحاكم » له كل حق على المحكومين وليس عليه أدنى حق لأحدٍ من الرعية .

ويرى بعض الكاتبين - وهو على حق - أن النظام الديمقراطى لدى الحكومات القديمة التى عرفته لم يكن نظاماً موضوعاً لتحديد الحقوق والواجبات الإنسانية ، بل كان إجراء لحماية الحكام من الأخطار الداخلية والخارجية ، وأن الحكومات نفسها كانت تهدف إلى مصلحة الحكام ، ولا تقيم وزناً لمصلحة المحكومين .

أما الديمقراطية التى معناها : حكم الشعب للشعب ، فلم يكن له وجود فى الواقع .

وحتى فى الفكر السياسى الدينى لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - انحرفت نظريات نظام الحكم انحرافاً خطيراً : فرفعوا الحاكم إلى درجة الوكالة عن الله فى الحكم ! أو الحاكم مفوَّض من الله بالحكم فهو ظل الله فى الأرض .

هذه الاتجاهات تجعل الحاكم طاغوتاً هبط من السماء ، ومما زاد الطين بَلَّة أن يُرى هذا الحاكم معصوماً من الخطأ فى القول أو فى الفعل !

ونسأل : أين دور المحكومين أو حقوقهم فى ظل هذه النظم ؟ والجواب الحتم : لا دور لهم ولا حقوق ، وإنما عليهم السمع والطاعة بلا أدنى نقاش أو تردد !

وهكذا تظل الرعية فى ظل هذه النظم قطعاناً من الماشية لا تملك رد سكين شحذها راعيها لذبحها ، ولا يرثى لها أحد إذا قطعت أعناقها .

ولو ظلّ العالَم محروماً من هدى الله ودينه إلى الآن لظل رقيقاً لطائفة من الناس ، لهم كل شئ فى الحياة وليس عليهم أى شئ للحياة .

* *

● صور من التشريعات الكتابية :

المقصود من التشريعات الكتابية : النظم التى اشترعها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، مما ليس له أصل فى الكتب المنزَّلة على أنبيائهم .

* ومن ذلك أنهم اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً يعبدونهم من دون الله ، والمراد من هذه العبادة هى طاعتهم فى ما يُشرِّعون لهم من تشريعات مخالفة لدين الله ، وليس المقصود منها الركوع والسجود .

* ومنه أن اليهود يُحلِّلون الإقراض بالربا مع غير اليهود ، أما مع اليهود فالإقراض يكون بدون ربا .

* ومنه أن اليهودى إذا احتاج وباع مسكنه ليهودى آخر ، فإن وجد ثمنه قبل مرور عام ردَّ إليه الثمن وأخذ مسكنه . وإن كان المشترى أجنبياً - غير يهودى - ردَّ إليه الثمن متى وجده ولو بعد سنين طوال ، وله أن يُقدِّر أجرة عن سنة ظلَّ المسكن فيها تحت يد المشترى الأجنبى ، ثم يخصم جملة الإيجار من الثمن الذى قبضه ويرد إليه باقيه !!

* وإذا تزوجت يهودية رجلاً غير يهودى صارت نجسة وحقيرة ! وحرام عليها أن تأكل طعام اليهود ، فإذا مات زوجها أو طلَّقها عادت إليها الطهارة

مرة أخرى إذا لم تكن أنجبت من الزوج الأجنبى أولاداً ، أما إذا أنجبت فإنها تظل نجسة حقيرة ، وإن مات الزوج أو طلَّقها !!

* واليهودى إذا تزوج أجنبية - مسلمة أو نصرانية - صار نجساً حقيراً !

* إن الرب - عندهم - جعل كل الشعوب من غير اليهود وكل ثرواتهم خبزاً لليهود شعب الرب المختار !

أما النصارى .. فمن بدع التشريع - عندهم - تقديس البابوات وأنهم معصومون من الخطأ القولى والفعلى ، وأنهم وحدهم يملكون تفسير الكتاب المقدَّس ، ولهم حق مخالفته ، فالرأى والحكم لهم ، وأن رجال الدين يملكون حق التحريم والتحليل ، فما رأوه حلالاً كان حلالاً فى السماء ، وما رأوه حراماً كان حراماً فى السماء وإن خالف الأناجيل المقدَّسة عندهم .

وأن العاصى لا تُقبل منه توبة إلا إذا جلس أمام « القس » على كرسى الاعتراف ، وأباح له بكل خطاياه !!

ومهزلة صكوك الغفران شاهد آخر على تردى التشريع عندهم ، وأصدق وصف لخرافة صكوك الغفران أن رجال الدين النصرانى كانوا يبيعون « الجنة » فى المزاد العلنى » فمن يدفع كثيراً يملك قصوراً فاخرة فى الجنة ، ويُعْطَى « صك » مكتوب وموقع عليه من البائعين ، ليتسلم حصته التى اشتراها من الجنة بعد الموت مباشرة !

ومن المضحك أن مَن يملك صكاً من « صكوك الغفران » يصبح غير مكلَّف بشئ من الأوامر والنواهى ، فليفعل من المعاصى ما شاء لأنه صار مغفوراً له غفراناً أبدياً !!

* *

● صور من التحليل والتحريم عند العرب :

والعرب قبل الإسلام حينما تصدُّوا للتشريع أتوا بكل حمق وجهل ، وأبرز ما حكاه القرآن عنهم ما ورد فى سورتى الأنعام والمائدة ، حيث كانوا يُحرِّمون أنواعاً من الماشية فلا تُذبح ولا تُؤكل ، وكانوا يُحلِّلون أنواعاً لذكورهم ويُحرِّمونها على إناثهم ، وإذا بحثت عن عِلَّة للتحليل أو التحريم أعيتك الحيل ، ثم رجعت ولم تفهم شيئاً قط يصبح به المحرَّم حراماً فعلاً ، ولا المحلَّل لِمَ كان حلالاً مرة وحراماً أخرى ؟!

هذا الاضطراب فى النماذج التشريعية التى أوجزنا لك الحديث عنها ، سبب الأسباب فيه انفراد العقل بالخوض فيها بلا هادٍ يهديه ، والعقل مهما عظم فإنه لا يدرك - وحده - علل التحريم والتحليل . حتى الرسل لم يكونوا يملكون تحليل شئ أو تحريمه إلا بوحى من الله أو إلهام فى قوة الوحى المنزَّل .

فكما أن الوحى هو المصدر الرئيسى الذى تُتَلقى عنه العقائد الدينية أصولاً وفروعاً ، ولا يعلو صوت على صوته فى بيانها وتقريرها ، فإنه هو المصدر الوحيد فى شئون التشريع ، لأن الله وحده هو الذى يعلم المصلح من المفسد ، والعقل يتلقى عنه مبادئ التشريع العام والخاص كما تلقَّى عنه أمور العقيدة سواءً بسواءٍ .

* * *

● أقسام النشاط البَشرى فى التشريع الإلَهى :

حصر التشريع الإلَهى النشاط البَشرى كله فى خمسة أقسام يمكن وضع ضوابط لها فى الرموز الآتية :

١ - **افْعَلْ** : وهو فِعْل أمر يندرج تحته نوعان من النشاط البَشرى هما :

(أ) **الواجبات** : وهى الأعمال الواجب الإتيان بها من الفرائض الدينية

كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، والواجبات الأخرى كالسعى على المعيشة والجهاد إذا وجب ، والتزام الصدق فى الأقوال والوفاء بالعهود .

(ب) **المندوبات** : وهى الأمور التى يترجَّح عملها على تركها من أبواب الخير كالإحسان فى المعاملات ، والتطوع فى العبادات ، والازدياد من تحصيل المعارف والعلوم ، والإكثار من التصدق على المحتاجين ، وذلك لأن أبواب الخير واسعة وليس فى استطاعة إنسان أن يفعل كل الخير ، فليأت منه بما يستطيع .

٢ - **لا تَفْعَل** : وهو فعل مضارع دخلت عليه « لا » الناهية ، ويندرج تحت هذا الضابط نوعان من السلوك البَشرى :

(أ) **النشاط المحظور ممارسته** : وهو المحرَّم كخيانة الأمانة ، وعقوق الوالدين ، والإساءة إلى الجار ، وخلاف الوعد ، ونقض العهد . . إلخ . . إلخ .

(ب) **النشاط** الذى يكون تركه أولى من فعله كتأخير الواجبات عن وقتها ، والانتفاع بما فيه شبهة .

٣ - **افْعَلْ أو لا تفعل** : فعلا أمر ونهى ، ويندرج تحته نوع واحد من السلوك البَشرى ، وهو « المباح » الذى يستوى طرفا الإتيان والترك فيه . بمعنى أن تركه لا يترتب عليه عقاب لتاركه ، والإتيان به يُثاب عليه فاعله ، وليس المراد فى المباح استواء طرفى الفعل والترك مطلقاً .

تحت هذه الضوابط الثلاثة حصر الوحى أو التشريع الإلَهى كل ضروب النشاط البَشرى كبيرة وصغيرة . فلن يقع عمل أو يترك خارج هذه الضوابط .

❋ ❋ ❋

الفروق بين التشريعين

ومعنى هذا أن التشريع فى دين الله محيط بكل حركة الحياة فى كل زمان ومكان . وهذا **أحد الفروق** الضخمة بينه وبين التشريعات البَشرية الوضعية التى لا تستند إلى مصدرٍ حكيم من مصادر التشريع .

أما الفرق الثانى بين التشريع الإلَهى وبين تشريعات البَشر الوضعية ، فإن التشريع الإلَهى تشريع موضوعى عام لكل زمان ومكان وجنس ، بينما كانت التشريعات الوضعية الفعلية محاطة بحدود الزمان والمكان والجنس ، ولا تزال كذلك إلى عصرنا الحاضر ، فكل دولة تضع تشريعاً خاصاً بها لا يتعداها إلى غيرها .

والفرق الثالث : أن التشريع الإلَهى موضوع لتحقيق السعادة لكل الناس ، بينما التشريعات الوضعية العقلية تستهدف جماعة معيَّنة مرتبطة بحدود البيئة المكانية والزمانية والجنسية ، ولا يدخل فى حسابها غيرهم من البَشر .

ورابع الفروق : أن التشريع الإلَهى يرسم الطريق الواضح المستقيم لتحقيق الأمن والسعادة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، أما ما عداه من التشريعات البَشرية فلا يهتم إلا بجانب من جوانب الحياة الدنيا الضيقة .

وخامس الفروق : أن التشريع الإلَهى يقوم على منهج حكيم ودقيق ويتوخى المصالح الحقيقية العامة والخاصة فى كل التكاليف - عبادات أو معاملات أو سلوكيات . وأن لكل حكم تشريعى فيه عِلَّة من أجلها كان الحكم ، ولكل حكم تشريعى فيه حكمة تشريع هى ثمرة تطبيق الحكم والأثر المترتب عليه فعلاً وتركاً .

وسادس الفروق : أن التشريع الإلَهى مصدره هو الله المحيط علماً بكل

شئ ، فهو وحده يعلم ما يُصلح الحياة وما يُفسدها ، لا يعزب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، والتشريع البَشرى - أياً كان - مصدره العقل ، والعقل قاصرٍ عن الإحاطة بحقائق الأمور ، تلتبس عليه حيناً ، ويعمى عنها حيناً ، وما سبقت إليه الإشارة من التشريعات العقلية دليل قاطع للعقل نفسه بأنه غير مؤهَّل للتصدى لهذه المهمة التى هى من اختصاص العليم الخبير .

فحاجة الناس إلى دين الله فى شئون التشريع كحاجتهم إليه فى أمور العقيدة .

وأكبر نكسة يعيش فيها العالَم الآن - مسلمون وغير مسلمين - هى تعطيل شريعة الله ومنهجه القويم فى الحياة ، واستحداث شرائع وقوانين عقلية خطؤها أضعاف أضعاف ما فيها من صواب : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (1) .

* * *

---

(1) المائدة : ٥٠

التشريع الإلهى

لا بد للإنسانية من التشريع الإلَهى لتنظيم الحياة تنظيماً حكيماً يرقى بها إلى أعلى عليين ؛ لأن لتشريع الإلَهى يوجه الجماعات والأفراد - دائماً - إلى التى هى أقوم ، والقرآن الحكيم قد أشار إلى أن هدى الله ودينه دعوة للحياة والعلم والتزكية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (١) .

وليس المراد بـ « الحياة » فى الآية بعث الأرواح فى الأجسام ، بل المراد أن تعاش هذه الحياة الجسدية حياة أخرى فوق حياة الجسد ، حياة قوامها الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وطاعة الله ورسله فيما أمر أو نهى ، وابتغاء مرضاته فى كل ما نأتى وما نذر .

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ﴾ (٣) .

ذلكم هو فضل هدى الله ودينه على مَن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، أما مَن أعرض عن هدى الله ودينه فلا حياة له إلا حياة الأنعام والدواب ، بل هم أضل من الأنعام والدواب ، وفيهم يقول الحق : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأنفال : ٢٤ — (٢) الجمعة : ٢

(٣) الإسراء : ٩ — (٤) الأعراف : ١٧٩

بل هم ليسوا أحياء ، وإن أكلوا وشربوا ودبُّوا على الأرض : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [1] .

والتشريع الإلَهى يندرج تحته ثلاثة أنواع :

الأول : ما أنزل الله فى كتابه العزيز من أصول كلية للتشريع ، أو أحكام تفصيلية لبعض المشكلات ، وقد عُنِىَ بعض الفقهاء بتحديدها وشرحها فى كتب لهم تحمل عنوان : « أحكام القرآن » ، كما عُنِىَ بها المفسِّرون لكتاب الله العزيز كابن العربى والجصاص من القدماء ، وغيرهم من المحدَثين .

الثانى : ما صحَّت نسبته إلى رسوله الأمين من أقوال وأفعال ، وتقريرات لأقوال وأفعال وقعت على مرأى منه ومسمع ، فأقرها ولم يُنكرها على فاعليها وقائليها ، وقد عُنِىَ كثير من العلماء بهذه الأحاديث وأفردوا لها كتباً خاصة كالإمام مالك ، والزيلعى ، وابن حجر ، وابن خزيمة ، وابن دقيق العيد .

الثالث : الأحكام الاجتهادية للنصوص الاحتمالية المعنى ، والأحكام التى استنبطها الفقهاء للوقائع والمشكلات التى لم يرد نص تشريعى فى بيان حكمها . وهذا النوع هو أكثر أحكام الشريعة ، وهو وإن كان عملاً عقلياً ، معدود من التشريع الإلَهى لأن سنده إما كتاب الله ، أو سُنَّة رسوله ، وليس عملاً عقلياً خالصاً .

ومن هذا النوع العقوبات التعزيرية على الجرائم التى لم يرد نص تشريعى فى تحديد عقوبات معينة لها ، والأمر فيها منوط بالعلماء والأمراء :

العلماء يُحدِّدون العقوبات على ضوء الشريعة ، والأمراء يضعونها موضع التنفيذ .

---

(١) النمل : ٨٠

وكل ما يُشترط فى العقوبات التعزيرية أمران :

الأول : أن تكون العقوبة رادعة لمرتكب الجريمة .

والثانى : أن تكون مناسبة للجريمة .

فلا نوقع عقوبة شديدة على جريمة خفيفة ، ولا عقوبة خفيفة على جريمة شديدة .

وإلى هذه الأنواع الثلاثة يشير قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** .. ﴾ (١) .

فطاعة الله المأمور بها هى العمل بما فى كتابه العزيز .

وطاعة الرسول هى العمل بما صحّ سنده ومتنه من سُنّته - صلى الله عليه وسلم .

أما أُولو الأمر فطاعتهم مشروطة بالتزامهم بما فى الكتاب والسُّنَّة ، ولذلك لم تفرد طاعتهم كما أفردت طاعة الله ورسوله ، بل أدرجت فى طاعة الله ورسوله ، وأُولو الأمر لا بد أن يكونوا من المؤمنين لقوله تعالى : ﴿ **وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ . . أى لا من غيركم .

فالعلماء مطالَبون فى كل عصر ومصر باستنباط الأحكام المناسبة لكل الوقائع والمشكلات التى تَجِدُّ وليس فى الكتاب ولا فى السُّنَّة نص قطعى الدلالة على حكمها ، فيجتهد العلماء فى استنباط حكمها مستندين إلى الكتاب والسُّنَّة وما قرره الأصوليون من قواعد بالنظر فيهما .

والأمراء مطالَبون بوضع ما يقرره العلماء موضع التنفيذ ، وليس لهم -

---

(١) النساء : ٥٩

العلماء والأمراء - أن يحتكموا إلى مصادر فى التشريع غير مصادر الشريعة الإلَهية . وكل قانون أو قاعدة تخالف أحكام الشريعة ومقاصدها فهى باطلة ، والعمل بها باطل .

والأعمال العقلية - أيّاً كانت - يجب أن تخضع فى التشريع لهدى الله ودينه ضماناً لصحة العمل ، وتجنباً للانحراف الذى كثيراً ما يقع فيه العقل إذا انفرد فى هذا المجال الدقيق .

* * *

عظمة التشريع الإلهى

مرَّت بنا نماذج من التشريعات البَشرية فى مجالات متعددة ؛ فى الاجتماع ، ونظم الحكم وغيرهما ، ومجرد النظر فيها يُظهر فسادها ويكشف قبحها وعجزها عن البقاء والاستمرار . وقد جاء هدى الله ودينه القويم ليزيح ذلك الباطل عن الوجود ، ويملأ تلك الفراغات الهائلة ، بتشريع سديد حكيم يتوخى الخير فى كل صوره ، ويدفع الشر فى كل أشكاله ، ويهيئ الجو لقيام حياة سعيدة راقية ، ونسوق فى السطور الآتية مُثُلاً من التشريع الإلَهى العظيم فى نفس المجالات المتقدمة التى رأينا انحراف التشريع البَشرى فيها :

١ – حقوق الإنسان :

يقرر القرآن الحكيم فى هذا المجال حقيقتين بارزتين لم يهتد إليهما تشريع بَشرى قط .

الأولى : أن الناس متفاوتون فى المواهب والاستعدادات والمَلَكات الذهنية ، وأن هذا التفاوت له حكمة عظيمة فى تقدير خالق الناس ومدبر أمورهم . وغاية ذلك إعمار هذا الكون واحتياج كل إنسان لأخيه وتبادل المنافع بينهم تبعاً لاختلاف مواهبهم وقدراتهم ، تلك هى سُنَّة الله فى خلقه ، ولو كانوا مستوين فى المَلَكات والقدرات لجمدت الحياة .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [١] .

---

(١) الزخرف : ٣٢

فهم متفاوتون فى القوة والضعف ، وفى الغنَى والفقر ، وفى العلم والجهل ، وفى الإقدام والإحجام ، وفى الفطنة والتبلد ، وفى المناقب والمثالب ، وفى الكرم والبخل ، وفى سعة الحيلة وضيقها ، وفى الحِرَف التى يمارسونها . وهذا التفاوت غايته تشابك المصالح وتبادل المنافع لتسير عجلة الحياة ، وقد عبَّر أحد الشعراء عن هذا المعنى فقال :

الناس للناس مـــن بـــدوٍ وحاضـــرة بعضٌ لبعضٍ - وإن لم يشعروا - خدم

أما الحقيقة الثانية . . فإن هذا التفاوت ليس مقياساً للفضل بين الناس ، فهم - جميعاً - سواسية عند الله ، وإنما مقياس الفضل عند الله هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح . هذا المبدأ العظيم تقرره آية واحدة قصيرة المبنى غزيرة المعنى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (1) .

بهذا القرار الإلَهى التشريعى الحكيم قضى هدى الله ودينه على كثير من القيم الزائفة التى يتخذها الناس مقاييس للفضل والشرف :

قضى على نظرية الجنس ، ونظرية اللون ، ونظرية البيئة ، ونظريات الحسب والنسب ، والجاه والغنى ، والقوة المادية الباطشة . فكل هذه « القيم » لا وزن لها فى الإسلام إذا لم يصاحبها إيمان واستقامة وتقوى وعمل صالح . فالهنود والرومان واليونان وبنو إسرائيل ومَن جرى مجراهم كانوا خاطئين فى تفضيل مَن فَضَّلوا ، وتحقير مَن حَقَّروا ، وكل النزعات العنصرية الدابرة والقائمة هى ضرب من الغرور الطائش ، والوهم الزائل . فالناس سواسية كأسنان المشط بأصل الخِلْقة مهما تباينت أجناسهم وألوانهم وبيئاتهم . وفى هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى » .

---

(1) الحجرات : ١٣

وكان عمر بن الخطاب يشير إلى أبى بكر وبلال - الذى اشتراه أبو بكر ثم أعتقه - ويقول : « هذا سيدنا وأعتق سيدنا » .

كما يشير القرآن الكريم إلى خطأ مَن اعتقدوا أنهم فضلاء لكثرة أموالهم وأولادهم فقال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (١) .

فليس للإنسان سيد من الخلق ، ولا هو سيد لأحد منهم ، وهذه منزلة تبوأها الإنسان فى هدى الله ودينه ، لم يحظ بها فى تشريع بَشرى قط .

* *

٢ - صلة الإنسان بالله :

سوَّى دين الله وهداه بين الناس جميعاً ، ولم يجعل لأحد - مهما علا - فضلاً أو سيادة على أحد - مهما نزل - ثم نفى فى تشريع آخر أى واسطة بينه وبين الناس ، فالله سميع عليم بكل شئون خلقه ، يتوبون فيتوب عليهم ، ويدعون فيسمع دعاءهم ، لا تتوقف توبته عليهم ، ولا سماعه لدعائهم على وساطة كاهن أو شفيع : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله يبسط يديه بالنهار ليتوب مسئ الليل ، ويبسط يديه بالليل ليتوب مسئ النهار » .

ويمضى القرآن ليقرر أن الذنوب لا يغفرها إلا الله : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ .. ﴾ (٣) .

---

(١) سبأ : ٣٧ (٢) البقرة : ١٨٦ (٣) آل عمران : ١٣٥

وبهذا يتحطم كرسى الاعتراف ، وتصم آذان الكهان الذين يدَّعون قدرتهم على غفران الذنوب بعد افتضاح مرتكبيها ، وتحرق صكوك الغفران ، وتسقط ربوبية الأحبار والرهبان ، وتزول لعبة الاستخفاف بالعقول ، ويتحرر الإنسان فى شريعة الرحمن من الوسطاء والأوصياء ، وتتفتح أمامه أبواب السماء بلا رقيب ولا حسيب من البَشر .

* *

٣ - لا عصمة لمخلوق :

مما اشتط فيه التشريع البَشرى ما شاع بين أهل الكتاب من يهود ونصارى من إضفاء العصمة على الأحبار والرهبان والبابوات وطاعتهم طاعة عمياء فى كل ما يُشرِّعون لهم ، واتخاذهم أرباباً من دون الله ، ومن الناس - قديماً - مَن اتخذ من الملائكة والنبيين أرباباً .

أما فى دين الله وتشريعه فتختفى كل هذه الأوهام ، فلا عصمة فيه لأحد من الخلق - حتى الأنبياء والمرسلين - إلا فيما أُمروا بتبليغه ، فهم فيه أمناء فطناء معصومون من الخطأ فى التبليغ . أما فى غير ما أُمِروا بتبليغه مما يصدر عنهم من آراء فى بعض المشكلات العارضة ، أو تدبير شئون خاصة لا صلة لها بالتبليغ أو التحليل والتحريم فإن الخطأ أو خلاف الأصوب جائز وقوعه منهم .

ومعلوم أن أنبياء الله ورسله هم صفوته من خلقه ، ومختاروه منهم ، ومع هذا فلم يأذن لهم بالتشريع من عنديات أنفسهم إلا ما كان طريقه الوحى أو الإلهام الكاشف المنزَّل منزلة الوحى الأمين .

ومن قواطع الأدلة فى دين الله على ما تقدَّم قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وشنَّع القرآن على أهل الكتاب حين نزَّلوا أحبارهم ورهبانهم وبعض أنبيائهم منزلة الأرباب فقال : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلا لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

ويقول النبى ﷺ : « كل ابن آدم خطَّاؤون ، وخير الخَطَّائين التوَّابون » .

وفى وقف شئون التشريع على الله وحده ورد قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ (٣) .

فقد وقفت الآية قضايا التشريع على وحى الله وحده .

وقال مشنِّعاً على فريق من الناس : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ .. ﴾ (٤) .

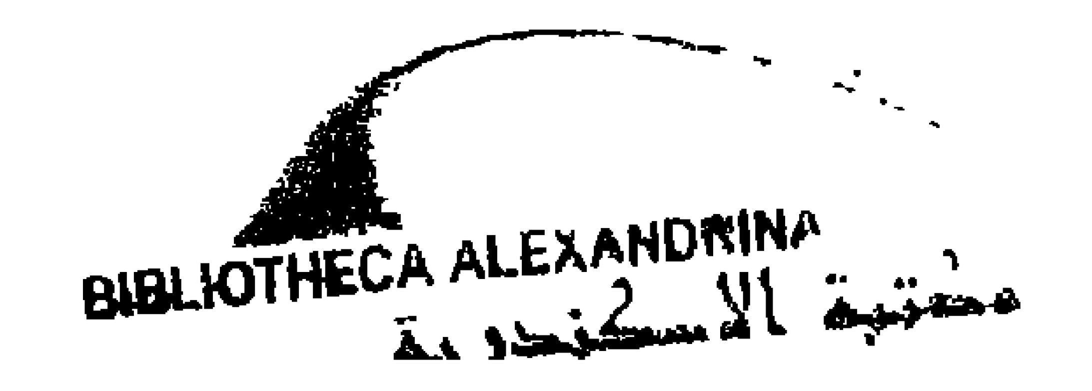
ويبين فى موضع آخر أن الله هو مصدر التشريع إلى جميع الأمم التى بعث فيها أنبياء ، فيقول مخاطباً خاتم الرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ... ﴾ (٥) .

ويأخذ على طائفة من الناس وضعهم تشريعات لم يأذن بها الله فيقول :

---

(١) آل عمران : ٧٩ - ٨٠ (٢) المائدة : ٣١ (٣) الأنعام : ١٤٥

(٤) الشورى : ٢١ (٥) الشورى : ١٣



﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وفى آية أخرى يُنكر القرآن الكريم أن يتناول الناس شيئاً من أمور التشريع بغير هدىً من دين الله ، ويطلق على هذه الظاهرة الجاهلية وصف الكذب ، ويقضى على ممارسيها بالخسران وعدم الفلاح . فقد ورد فى هذا قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

إن التشريع فيما يتعلق بالتحليل والتحريم ، وما يتصل بهما يخضع لاعتبارات دقيقة ومعقَّدة ، يقصر العقل البَشرى عن إدراكها بغير وحى الله ودينه ، فالناس - دائماً - يصيبون ويخطئون ، وليس فيهم مَن هو معصوم من الخطأ ، لا بابوات ولا مامات ، ولا أحبار ولا رهبان ، ولا شيوخ مهما أُوتوا من العلم والمعرفة .

ومن أقطع الأدلة على قصور العقل فى هذا المجال الاضطرابات والتناقضات التى شاعت فى التشريعات البَشرية قديماً وحديثاً ، فالناس - جميعاً - عليهم أن يكفوا عن هذا الانحراف الخطير ، وأن يلتزموا ما شرع الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله الصادق المصدوق . فإن التشريع بغير ما أنزل الله منازعة لله فى واحدة من صفات « الألوهية » ، ولهذا حذَّرنا العليم الخبير فقال : ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) يونس : ٥٩ (٢) النحل : ١١٦ - ١١٧ (٣) الأعراف : ٣

وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

* *

٤ - كفالة الحريات :

حينما تعرَّضت التشريعات الوضعية لحقوق الإنسان أساءت إليها إساءات بالغة . وبرزت تلك الإساءات - كما تقدم - في تقسيم المجتمعات إلى طبقات ، بعضها لها كل المزايا بالوراثة ، وبعضها ترفل في قيود الذل والتبعية والرق بالوراثة كذلك ، وتُسخَّر لخدمة الأسياد وتقوم بأشق الأعمال .

ولكن هدى الله ودينه أنصف تلك الطبقات الذليلة ، وجعل لكل إنسان حقوقاً مرعية بمجرد أن يولد حتى آخر يوم في حياته ، وقضى تشريع الله الحكيم على كل ألوان الظلم والاضطهاد ، وفتح الأبواب واسعة لتحرير الرقيق وإمتاعهم بالحريات اللازمة واللائقة بكرامة الإنسان .

ومن تلك الحقوق كفالة الحريات الإنسانية ، ومن أبرزها :

(١) **حرية الاعتقاد** : فليس لأحد على أحد سلطان لإجباره على الدخول في أية عقيدة ، وإن كانت عقيدة الإسلام . والنص التشريعي الخالد في هذا المجال هو قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً .. ﴾ (٣) .

(٢) **حرية العمل** : فلكل إنسان أن يختار من الأعمال ما يوافق مواهبه دون حَجْر عليه من مخلوق مثله ، ما دام العمل الذي يؤديه مشروعاً ولا يترتب

---

(١) الأنعام : ١٥٣ (٢) البقرة : ٢٥٦ (٢) الكهف : ٢٩

عليه ضرر بأحد . والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

فلا رقابة لأحد على أحد فيما يعمل إلا رقابة الله سبحانه ، ما لم يكن فى العمل اعتداء على النظام العام الذى شرعه الله للناس ، فلا بد من النهى عن هذا المنكر ، وتطبيق شرع الله على مرتكبيه .

وأحياناً يُعبِّر القرآن الحكيم عن العمل بالمشى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٢) .

(٣) **حرية القول والرأى** : لم يحجر الإسلام على أحد فى أن يُعبِّر عما فى نفسه من معان ، أو يبدى رأيه فى مشكلة ، كل ما يضعه الإسلام للقول والرأى هو أن يتوخى المتكلم الحق والصلاح فى قوله ، والنصح والإصلاح فى رأيه . قال سبحانه : ﴿ فَلْيَتَّقُواْ اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ (٣) .

وفى مجال إبداء الرأى فُتح باب التشاور فى كل الأمور التى يحيط بها نوع من الغموض : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ .. ﴾ (٤) .

كما فُتح باب الدعوة إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله عند وقوع النزاع بين الجماعة بعضهم بعضاً ، أو بينهم وبين ولاة أُمورهم : ﴿ .. فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ (٥) .

(٤) **حرية التملك** : لم يحد هدى الله ودينه مقادير معيَّنة للتملك ، وإن بلغت ثروات الأفراد عنان السماء ، ما دامت طرق الكسب مشروعة ، والحقوق مؤداة ، وتشتمل حرية التملك عدة صور :

---

(١) فصلت : ٤٠ (٢) الملك : ١٥ (٣) النساء : ٩
(٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) النساء : ٥٩

١ - تملك المقدار مهما بلغ .

٢ - تملك النوع ما لم يكن محرَّماً كالخمور والمخدَّرات .

٣ - حرية التصرف ما لم يكن فى محرَّم .

٤ - حرية بقاء الملك بيد صاحبه ما لم تدع ضرورة الجماعة نزع شئ منها مقابل تعويض عادل .

وبكفالة هذه الحريات الضرورية كفل هدى الله ودينه للإنسان كرامته وجعله أهلاً لتحمل المسئولية وأداء دوره فى الحياة ، ولا سلطان عليه لأحد سوى سلطان خالقه ومولاه .

* *

٥ - ظاهرة الرق :

لا يقدح فيما قررناه من كفالة الحريات فى دين الله وهداه ما نجده من الفقه الإسلامى من أحكام الرق وملك اليمين ؛ لأن كلمة الحق التى ينبغى أن تقال فى هذا المقام : أن الإسلام جاء ونظام الرق فاش فى المجتمعات الإنسانية ، والاتجار فيهم كان يمثل جانباً ضخماً فى الاقتصاد العالَمى ، وكان من الممكن أن تنزل آية واحدة تقضى بتحريرهم فوراً . ولكن من حكمة التشريع الإسلامى أن أبقى على أصل تلك الظاهرة لئلا يلحق الضرر بمالكى الرقيق ، ثم فتح الأبواب واسعة للقضاء عليها بالتدريج ، فجعل العتق قُرْبة عظيمة يتقرَّب بها المعتِق من الله ثم :

١ - جعل العتق من كفَّارات اليمين .

٢ - ومن كفَّارات الظِّهَار .

٣ - ومن كفَّارات الفطر بلا عذر فى شهر رمضان .

٤ - ومن كفَّارات القتل الخطأ .

ومصارف أخرى عملية أسهمت فى تصفية ظاهرة الرق ، ولم ينشئ الإسلام حالة واحدة يترتب عليها حدوث استرقاق جديد إلا أسرى الحرب ريثما تضع الحرب أوزارها ، ويتم التصرف فيهم حسبما يتفق عليه الطرفان .

فالإسلام ليس مسئولاً عن استحداث ظاهرة الرق ، بل هو التشريع الوحيد الذى رسم طرق القضاء عليها إلى الأبد .

* *

٦ - شخصية الجريمة :

من المزالق الخطرة التى هوت فيها بعض التشريعات الوضعية القديمة ، وما تزال تطبقها تشريعات وضعية معاصرة : إيقاع العقوبة على مرتكبى بعض « الجرائم » كعقوبة الإعدام أو الاعتقال أو السجن ، ثم تطبيق عقوبات أخرى على أسر مَن أُعدموا أو اعتقلوا أو سجنوا ، كحرمان الزوجات والأولاد من المعاش والتضييق عليهم بأساليب أخرى ، هذا ما يحدث الآن ، وقديماً كانت بعض النظم الوضعية تطبق العقوبة على « المجرم » وعلى أهل بيته سواء بسواء باعتبار الجميع مجرمين ، ومن أوضح صور هذا الانزلاق ما يعتقده النصارى من أن عيسى عليه السلام قدَّم نفسه للصلب ليفدى البَشرية من خطيئة أبيهم آدم حين أكل من الشجرة المحرَّمة فعصى آدم ربه بالأكل منها ، وأن ذُرِّيته من بعده حملت إثم هذه المعصية ، فجاء عيسى وصُلب - حسب عقيدتهم - ليُخَلِّص البَشرية من خطيئة أبيهم !!

وجاء هدى الله ورسالته الخاتمة فصحَّحت هذه الأخطاء جميعاً بما يأتى :

أولاً : أن الجريمة - مهما كانت - إنما هى كسب شخصى يتحمل مسئوليتها

الذى ارتكبها وحده ، لا تتعدى إلى غيره ممن لهم صلة بالمجرم أباً أو أماً ، أو ولداً أو أخاً ، أو زوجة ما دام غيره لم يشترك معه فى الإجرام .

فقد جاء فى القرآن الحكيم : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) .

كما ورد : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣) .

ثانياً : إن خطيئة آدم قد عفا الله عنه فيها ثم تاب عليه فصار مبرأ من أى مؤاخذة عليها : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٥) .

فخطيئة آدم - كما ترى - محتها التوبة ، ولم يَعُد هو مسئولاً عنها ، فكيف تتحملها ذُرِّيته من بعده ؟

وحتى لو لم يتب ، ويتب الله عليه ، لظل هو وحده المسئول عنها ، لأن الخطايا لا تورث ، ولأن الله ليس بظلام للعبيد : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٦) .

وهكذا يحرر هدى الله ودينه الإنسان من أن يؤخذ أحد بجريرة أحد ، ويقرر الحقوق والواجبات الإنسانية فى تشريع عادل حكيم ، يساير سنن الفطرة ، فلا ظالم ولا ظلم ولا مظلوم ، وإنما عدل ورحمة ، وقسطاس مستقيم .

* * *

---

(١) الزمر : ٧ (٢) المدثر : ٣٨ (٣) الإسراء : ١٥

(٤) البقرة : ٣٧ (٥) طه : ١٢١ - ١٢٢ (٦) النساء : ٤٠

• نظام الحكم فى التشريع الإلهى :

رأينا فيما تقدَّم كيف اضطرب التشريع الوضعى فى نظم الحكم وشيوع نظام الطبقات المتفاوتة الحظوظ فيه ، وأن نظام الطبقات فى التشريع الوضعى نشأ عن مبادئ ونظريات جاهلة ظالمة . وظاهرة الرق فى تاريخ البَشرية لم يكن لها من سبب هو التعصب للجنس واللون ، أو ضد الجنس واللون . كما شاع فى تلك النظم أن الحكم والسلطان أكبر وسيلة لرعاية مصالح الحكام وأسرهم وأعوانهم والطبقات التى تليهم فى الشرف الوراثى . كما رأينا أن ما عُرف بالنظم الديمقراطية فى التاريخ القديم كانت بمثابة إجراءات تحقق الأمن للسادة داخلياً وخارجياً ، وأنها تخلو من المبادئ والنظريات التى ترعى حقوق الإنسان بعامة ، وأن الحكام والسلاطين كانوا لا يرون أن عليهم حقوقاً تجاه المحكومين ، وفى نفس الوقت كانوا يرون لهم حقوقاً على الرعية تدنو من درجة العبادة والتقديس . والمعروف فى منطق العدالة أن كل حق يقابله واجب . فإذا لم يقابل الحق واجب فلا حق قط لمن ليس عليه واجب . ويضاف إلى هذه المثالب ما كان يراه بعض « السادة » من أنهم معصومون من الخطأ فى الأقوال والأفعال ، وقد ألزموا رعاياهم بهذا الاعتقاد الواهم .

ثم جاء الإسلام توجيهاً حكيماً لشئون الحياة كلها ، ولقَّن العالَم كله درساً بليغاً فى سياسة الحياة الراشدة فى جميع الأنشطة فردية وجَماعية ، ووضع نظاماً للحكم على أسس راسخة : لا سيد فيه ولا مسود ، ولا ظالم ولا مظلوم ، الولاء فيه لله ورسوله والحق الذى نزل ، والحاكم والمحكوم أمام الله سواء ، فليس لحاكم فضل على محكوم بسبب أنه حاكم وذاك محكوم .

ونظام الحكم فى الإسلام يتمثل فى الإجراءات والاعتبارات الآتية :

أولاً : التفرقة الدقيقة بين المنهج (الدستور) الذى ينبغى الاعتماد عليه فى الحكم فيُطبَّق على الأفراد والجماعات ، والحاكم والمحكوم .

وبين الأدوات (الإدارة) البَشرية التى يُناط بها تطبيق ذلك المنهج .

فالمنهج هو شريعة الله ممثَّلة فى كتابه العزيز ، وسُنَّة رسوله الشريفة ، وما يستنبطه علماء الأمة من أحكام للوقائع التى تحدث فى كل مكان وزمان لم يرد فى حكمها نص ولا قام عليه إجماع . وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ أَطيعُواْ اللهَ وَأَطيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإن تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ (١) .

هذا المنهج ليس موضع اختيار للأمة ، تأخذه أو ترده ، وإنما هو منهج حتمى واجب النفاذ ، لما فيه من دقة وإحاطة بحلول المشكلات من جهة ، ولما فيه من قوة على الإصلاح الخاص والعام فى سلوكيات الجماعات والأفراد .

ووضع هذا المنهج موضع التنفيذ هو علامة الإيمان الصادق للإدارة البَشرية الحاكمة ، ولعامة الأمة ، وهذا منصوص عليه فى محكم الكتاب : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٢) .

فالإيمان - هنا - مشروط بشرطين :

الأول : الإذعان التام لحكم الله ورسوله .

الثانى : الرضا النفسى الخالص بحكم الله ورسوله .

وحكم الله ورسوله نوعان :

(أ) أحكام منصوص عليها فى الكتاب العزيز والسُّنَّة الشريفة .

(ب) أحكام مستنبَطة عن طريق الاجتهاد الفقهى المستند إلى كتاب الله ورسوله .

وهذا النوع غير محدود بما هو موجود الآن فى كتب الفقه والأصول والتفسير..

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) النساء : ٦٥

والحديث ، بل هو باب واسع ومفتوح إلى يوم الدين ، يدخل منه كل الأحكام الفقهية الاجتهادية المواكبة لحركة الحياة . والفقرة الثانية من الآية الحكيمة المتقدمة : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ تقرر الاجتهاد الواجب أمام الوقائع المستجَدة مما ليس له حكم منصوص عليه فى مصادر الشريعة . وأن الاحتكام إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله عند الاختلاف فى أحكام الوقائع المستجَدة واجب على الأمة . ومعنى هذا أن المنهج الإلَهى فى التشريع صالح بنفسه فى الامتداد ، وليس فى حاجة إلى « الترقيع » من خارجه أيّاً كانت المصادر .

ومن النصوص الشرعية القاطعة بحتمية العمل بالتشريع الإلَهى قوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ [1] .

هذا هو ما يتصل بالمنهج النظرى الواجب تطبيقه فى تسيير شئون الحياة مهما صغرت أو كبرت . منهج حتمى لا خيار للأمة فيه .

فإذا رفضته الأُمة ، أو قبلت بعضه وردَّت بعضه ، أو رقَّعته من خارجه ، كانت أُمة ضالة مآلها الخسران والضياع .

أما أداة الحكم ، أو الإدارة البَشرية التى تتولى تطبيق المنهج الإلَهى ، فإنَّ الأُمة هى صاحبة السُلْطة فيها ، تُولى مَن يصلح لهذه المهمة الخطرة وفقاً للشروط والمواصفات الموضوعة فى هذا الشأن ، وهى كثيرة ، ومع كثرتها يمكن أن نُعبِّر عنها بكلمة واحدة هى : « تحقق الصلاحية » فى مَن يتولى أمر المسلمين ولاية عامة : الإمام ، أو خاصته : معاونو الإمام .

ومرة أخرى نقول : إن جهاز الحكم البَشرى الأُمة فيه هى مصدر السلطات ، ولا إرادة لأحد تعلو فوق إرادة الأُمة فى هذا الأمر العظيم .

---

(١) الأحزاب : ٣٦

وتتمثل سُلْطة الأُمة فى تكوين الجهاز البَشرى للإدارة العليا للحكم فى الحقوق الآتية :

أولاً : اختيار الرئيس الأعلى للحكم اختياراً خالصاً نابعاً من إرادة الأُمة الحرة ، خالياً من كل تزوير أو إكراه ، بأى طريق من طرق الاختيار : بيعة عامة ، أو انتخاب ، أو ترشيح يوافق عليه أهل الرأى والسداد من فضلائها .

ثانياً : مراقبة الرئيس الأعلى - وهو الإمام أو الخليفة أو الآمر - فى كل قول أو عمل أو تدبير يزاوله بصفة الإمامية أو الخلافة أو الإمارة .

ثالثاً : إسداء النصح الخالص له ، وتنبيهه إلى الأخطاء التى تصدر منه أو من معاونيه ، سواء أكان الخطأ واقعاً بحسن نية أو متعمداً .

رابعاً : عزله وتولية مَن هو أصلح منه إذا ثبت فشله أو لم يؤد الأمانة التى أُنيطت به وأضرّ بمصالح الأُمة ضرراً جسيماً ، ولم يستجب لنصح الناصحين ؛ لأنه وكيل للأُمة التى خوّلته هذه « الرياسة » ، وللموكل الحق فى عزل وكيله متى شاء ، ويتعين العزل عند حدوث الضرر منه .

خامساً : للرئيس الأعلى على الأُمة السمع والطاعة والنُصرة ومساعدته على أداء مهماته إذا أمر بطاعة أو معروف ، فإذا أمر بمعصية فلا طاعة ولا سمع .

سادساً : من أخطر صور الإخلال بالمصالح العليا للأُمة تعطيل شريعة الله وإحلال بدائل وضعية محلها ، تخالف شريعة الله .

سابعاً : ليس للرئيس الأعلى - أو الخليفة أو الإمام أو الأمير - فضل أو مزايا على غيره من أفراد الأُمة بوصف أنه الرئيس الأعلى أو الخليفة أو الإمام أو الأمير ، بل هو فرد من أفراد الأُمة يُقَر على صوابه ، ويُحاسَب على خطأه كأى فرد من أفراد الأُمة .

ثامناً : ليس له ولا لأحد من معاونيه الاستبداد بالرأى فى الأمور التى تخضع لسيادة الأُمة . فعلى الجهاز الحاكم أن يعمل بمبدأ « الشورى » فى الأمور ذات

الخطر ، ويُلزَم الجهاز الحاكم بما تُسفر عنه عملية « الشورى » العامة فى الأمور العامة ، وبما أسفرت عنه عملية « الشورى » من أهل الذكر والاختصاص فى الأمور التى تتطلب خبرات معيَّنة ولا يحسن طرحها على جميع الأفراد .

فالأمور الدينية يُرجع فيها إلى علماء الشريعة ، والأمور الحربية يُرجع فيها إلى أهل الاختصاص من العسكريين ، وهكذا . .

هذه هى أسس الحكم فى الإسلام بشقيه : النظرى ، والعملى .

فالمنهج أو دستور الحكم هو شريعة الله ، وليس للأمة فيه خيار بين القبول والرفض ، وليست الأُمة فيه مصدر السلطات . . وجهاز الحكم - أو الإدارة البَشرية - فالأمة فيها هى مصدر السلطات : تختار ، وتراقب ، وتنصح ، وتعزل إذا لزم الأمر .

فإذا كان السؤال : مَن الذى يحكمنا : علىّ أم سعيد أم خالد ؟ كان الجواب : يحكمنا أصلح الثلاثة ، إن كان خالداً فخالد ، أو سعيداً فسعيد ، أو علياً فعلىّ .

وإذا كان السؤال : بِمَ يحكمنا أصلح الثلاثة ؟ كان الجواب الذى لا مفر منه : بشريعة الله .

فالحاكمية - إذن - لله فيما يتصل بدستور الحكم ، وهى - مع شئ من التسامح - للأمة ، فيما يتصل بالجهاز البَشرى الذى يحكم هذه الحقائق من أظهر ما أسفر عنه مؤتمر السقيفة عقيب وفاة رسول الله ﷺ حين اجتمع الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار مَن يتولى أمر المسلمين بعد وفاة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، والحوار الذى دار فيه بين المهاجرين والأنصار . ثم فى خطبة أبى بكر التى ألقاها على مسامع المؤتمرين عقيب اختياره خليفة لصاحب الدعوة فى إدارة أمور المسلمين .

فقد جاء فى خطبة أبى بكر :

« إنى وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم » .

« **أطيعونى ما أطعتُ الله فيكم** » .

« **فإن عصيتُ الله فلا طاعة لى عليكم** » .

« **الضعيف فيكم هو القوى عندى حتى آخذ الحق له** » .

« والقوى فيكم هو الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

ثم جاء التطبيق العملى فى حياة الشيخين أبى بكر وعمر والشطر الأول من خلافة عثمان رضى الله عنهم ، فأرسى - عملياً - كثيراً من أسس نظام الحكم فى الإسلام . وحين تصدَّى علماء الأمة من بعد للحديث عن الإمامة العظمى وواجباتها وحقوقها ، ودور عامة الأمة فيها أسفرت بحوثهم ودراساتهم عن فهم ثاقب لنظام الحكم فى الإسلام مستمَداً من نصوص الإسلام المقدَّسة - قرآناً وسُنَّة - ومن السُّنَّة العملية للخلفاء الراشدين ، وأسفرت كل الجهود عن أن نظام الحكم فى الإسلام نموذج من طراز فريد لسياسة الحياة الراقية ، يتوافر فيه الأمن والحرية لغير المسلمين ، كما يتمتع بهما المسلمون . والدراسات التى دارت حول نظام الحكم فى الإسلام والتطبيقات العملية تُعَد من أسمى ما عرفته البَشرية فى هذا المجال ، وأن نظم الحكم الإسلامى تجتث من الأساس كل نظم الحكم الغاشمة ، وتبيد نظم الحكم المطلق أو المعصوم من الخطأ ، وتسوِّى بين الناس فى الحقوق والواجبات . وأن الإنسانية لا مطمع لها - إذا هى رشدت - فى أى نظام يختلف عن نظام الحكم الإسلامى ؛ لأنه نظام وضعه العليم الخبير ، وأرسى كثيراً من محاسنه القولية والعملية رسول معصوم من الخطأ فى التبليغ .

* * *

● أثر نظام الحكم الإسلامى فى الديمقراطيات المعاصرة :

من الحقائق التى لا تُجهل أن العالَم - بما فيه دول أوروبا - كان يعيش قبل عصر النهضة فى ظلام كثيف فى كل شئون الحياة ، وأن نظم الحكم فيه كانت نهباً بين ملوك الإقطاع الذين ملكوا دنيا الناس وأجسادهم ، وبين آباء الكنيسة الذين ملكوا - قهراً - قلوب الناس وأرواحهم ، وأن الناس فى ظل هذا النظام سيطرت عليهم « ثنائية » بغيضة ، فهم فى شئون الدنيا والمادة والجسد مقهورون لملوك الإقطاع ، وهم فى شئون الروح والقلب مقهورون لرجال الدين والبابوات الذين أضفوا على أنفسهم صفة التقديس والعصمة من الخطأ .

وظل الأمر على هذه الحال ثم أخذت نسائم التحرر تتسرب من النظام الإسلامى إلى أوروبا على مرحلتين :

مرحلة فكرية : أسهم فيها فريق من مفكريهم مهدوا لنظام الحكم الدستورى ومحاربة الحكم الاستبدادى المطلق ، منهم « هوبرت لانجيه » الفرنسى فى أواخر القرن السادس عشر ، و« توماس هوبز » الإنجليزى فى أواخر القرن السابع عشر ، و« چون لوك » الإنجليزى فى القرن السابع عشر .

هؤلاء وغيرهم نقلوا إلى الفكر السياسى الأوروبى فكرة أن السيادة للأمة وليست للحكام .

ومرحلة عملية : وكان السبق فيها للإنجليز الذى طبَّقوا مبادئ الحكم الديمقراطى لأول مرة فى الغرب ، ونص دستورهم على كثير من مبادئها .

ثم جاءت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، وحطمت أغلال الحكم المستبد ، ونقلت السطات من « الحكام » إلى « الشعوب » التى كانت مغلوبة على أمرها .

* * *

● من التمثيل إلى التعميم :

محاسن التشريع الإلَهى ليست مقصورة على النماذج التى سقناها للمقارنة بين صور من التشريع الوضعى الهزيل وصور من التشريع الإلَهى الحكيم . بل إن محاسن التشريع الإلَهى تشمل مجالات العمل الإنسانى كله ، فهو فى مجال التحريم لم يُحرِّم إلا الخبائث المهلكات ، وفى مجال التحليل لم يُحلِّل إلا الطيِّبات النافعات ، وفى مجال المستَحبَّات يعمد إلى أفضل النظائر والأشباه ويفضل عملها على تركها ، وفى مجال المكروهات ينفر مما يدنو من الحرام ، وفى مجال المباحات يؤذن بما يُستطاع عمله من الخير المطلق ، وهكذا تراه يدعو للتى هى أحسن دائماً من خلال الضوابط الثلاثة المتقدمة : افْعَلْ - لا تَفْعَلْ - افْعَلْ أو لا تَفْعَلْ .

وتظهر محاسن التشريع الإلَهى لو تخيلنا مجتمعاً إنسانياً - ولو كان صغيراً - يلتزم أفراده بتطبيق التشريع الإلَهى ، وبخاصة فى مجالات التحليل والتحريم ، لو كان هذا قد حدث لكان مجتمعاً إنسانياً راقياً أسمى ما يكون الرقى ولانمحى فيه الفساد والإفساد ، ولكان مجتمعاً نموذجياً - بحق - يعم فيه الحق والفضيلة ، وينأى عنه الباطل والرذيلة ، ولوَفَّاهُمُ الله وعده :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

* * *

(١) الأعراف : ٩٦

المجال الثالث : الأخلاق

فى هدى الله ودينه ترابط عضوى وثيق العرى بين الاعتقاد والتشريع والأخلاق :

* فالعقيدة هى الأصل أو الشجرة الطيبة . أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء .

* والتشريع هو الغصون الممتدة فى كل اتجاه من تلك الشجرة الطيبة .

* والأخلاق هى الثمار اليانعة المدلاة من تلك الغصون .

وهى على اختلاف أحجامها وطعومها وألوانها غذاء كامل العناصر ، متكامل التفاعل تزكو به الروح ، وتحيا به القلوب ، وتتم به دورة الحياة ، وترقى به إلى أعلى عليين ، فليس فى الإسلام شئ ليست الحياة فى حاجة إليه . ولا الإسلام مفتقر إلى شئ ليس فيه ؛ لأنه صنع الله الذى أتقن كل شئ ، هو صانعه ، والإسلام لن يؤتى ثماره كلها إلا إذا عُمِل به كله بوعى وإخلاص .

﴿ .. قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

هذا .. وقد اضطرب النظر العقلى وتعثَّر حين تصدَّى لدرس الأخلاق مثلما اضطرب وتعثَّر حين تصدَّى - من قبل - لدرس العقيدة ، ودرس التشريع ؛ لأنه خاض فى ميادين لم يُؤهَّل للخوض فيها وحده بدون هادٍ يهديه .

وكما كان هدى الله ودينه لازماً لدنيا الناس فى مجالى العقيدة والتشريع ،

---

(١) المائدة : ١٥ - ١٦

فهو لازم لدنيا الناس فى مجال الأخلاق ، وعلى العقل فى هذه المجالات الثلاثة أن يسلم قياده لهدى الله ودينه ويسير خلفه حيث سار ، فإن ظن أنه قادر على السير وحده كبا وضل . ونسوق فى ما يأتى نماذج سريعة لاضطراب العقل فى مجال الأخلاق مثلما سقنا نماذج له فى مجالى العقيدة والتشريع :

● كبوتان :

تبيَّن لنا من النظر فى مباحث الأخلاق التى أسفرت عنها الدراسات الإنسانية الحرة أن واضعى تلك الدراسات كَبَوْا كبوتين فى شعبتين من مباحثهم : إحداهما فى تحديد الأخلاق الفاضلة ، والثانية فى تحديد مصدر الإلزام الخُلُقى ، وعلى هذا الأساس ندير الحديث :

* الكبوة الأولى - تحديد الأخلاق الفاضلة :

التفرقة بين الخُلُق النبيل والخُلْق اللئيم قد تكون فى بعض جوانبها مدركة للعقول فى سهولة ويُسر ، مثل الصدق والكذب والكرم والبخل ، والعلم والجهل ، والأمانة والخيانة ، فالعقل والبديهة يحكمان بحسن الأوائل وبقبح الثوانى من النماذج المذكورة .

بَيْدَ أنَّ هذه التفرقة قد تصعب وتدق فى نماذج أخرى لا يهتدى العقل إلى قول فصل فيها ، فتتعدد فيها المذاهب العقلية ، وتتشعبُ حولها الآراء . فمثلاً إذا اتخذ الرجل العفو عن كل مَن أساء إليه ، هل يكون عفوه - هذا - فضيلة ؟ أم الفضيلة أن يُعامَل كل مسئ بإساءته ؛ لأن فى العفو الدائم نوعاً من الضعف والتقصير فى حق نفسه ؟

وكذلك إذا اتخذ رجل ما - الصراحة فى كل الأمور حتى لا يكاد يخفى شيئاً وراء لسانه ، هل صراحته - هذه - فضيلة ؟ أم الفضيلة أن يوازن بين أُمور يصارح فيها وأُمور يخفيها ؟

وإذا آثر بالخير الذى بيده غيره من الناس وحرم نفسه من متع الحياة وقسا على نفسه فيها ، هل هذا الإيثار هو الفضيلة ، أم الفضيلة أن يبدأ بنفسه ثم يثنى بغيره وإذا احتاج إلى شئ فى خاصة نفسه خصَّها به ؟

للتخلص من هذا الاشتباك ذهبت الفلسفة اليونانية القديمة - وبخاصة « أرسطو » - إلى وضع مقياس يُفرِّق بين كل فضيلة ورذيلة فقالت : « إن الفضيلة - دائماً - وسط بين رذيلتين » ، فالكرم - مثلاً - فضيلة ؛ لأنه يتوسط رذيلتين ، إحداهما قبله هي البخل ، والأخرى بعده هي الإسراف .

والشجاعة - مثلاً آخر - فضيلة ، تتوسط رذيلتين : الأولى قبله هي : الجبن ، والأخيرة بعده هي : التهور ، وهكذا يطبقون هذا المقياس على كل النماذج المتقابلة من سلوكيات البَشر .

وقد تعرَّض هذا « القانون » لانتقادات صائبة ، منها أن هذا القانون يقيس الفضائل والرذائل وكأنها أشكال هندسية ، أو معادلات رياضية ، ويلقى كل العوامل النفسية والميول الإنسانية ، وتصبح الفضائل فيه « لوغارتمات » آلية ، أو سلوكاً جبرياً لاختيار العواطف الإنسانية .

وهذا النقد ربما أمكن رده من بعض الوجوه ، ولكن الذى لا مناص من قبوله هو النقد الآتى :

* ليس بلازم أن تكون الفضيلة دائماً محصورة بين قوسين أحدهما : الرذيلة السابقة على الفضيلة ، والثانى : الرذيلة اللاحقة بها . .

فالشجاعة - مثلاً - وإن تقدَّم عليها الجبن فهى لم يقع بعدها التهور . فمهما بالغ الشجاع فى شجاعته فهو شجاع ، وهى شجاعة حتى لو أدت به شجاعته إلى الموت . أمّا التهور - وهو « الحماقة » - فلا صلة لها بالشجاعة . فالفضيلة فى هذا المثال ليست محصورة بين رذيلتين .

وكذلك يقال فى الكرم ، فهو - قطعاً - مسبوق بالبخل ، ولكن حين يتجاوز الوصف مرحلة البخل يكون كرماً دائماً مهما قطع من أشواط إلى الأمام . والإسراف لن يكون طرفاً ينتهى عند بدايته الكرم ، فالكرم كرم مهما امتد ؛ لأن الكريم هو مَن بذل من ماله لغيره ، أما المسرف فهو المنفق على حظوظ نفسه متجاوزاً حد الاعتدال .

وكذلك العلم هو فضيلة بلا نزاع ، ومهما ازداد العالِم علماً ، فلن تجد حداً ينتهى عنده ثم تبدأ رذيلة لاحقة به !!

وهذا النقد - فيما نرى - هو أصوب نقد وُجِّه إلى قوانين الفضيلة والرذيلة فى فلسفة اليونان القدماء ، وما تزال أمثلة أخرى غير ما ذكرناه من مسائل الشجاعة والكرم والعلم لا يُرى فيها حاصران من الرذائل تُسجن بينهما الفضائل بدءاً ونهاية .

وإنما وقعت الفلسفة اليونانية القديمة فى هذا المأزق لأنها لم تُفرِّق تفرقة دقيقة بين معانى الحاصر والمحصور من الفضائل والرذائل فى النماذج التى درسوها واستخرجوا منها قانونهم المذكور فى التمييز بين الخير والشر ، أو الفضيلة والرذيلة .

*

* المنفعة :

وفى العصر الحديث أضاف النظر العقلى فى تحديد الأخلاق صورة أخرى من الانحراف إلى « وسطية » الفلسفة اليونانية القديمة التى حصرت الفضيلة بين رذيلتين سابقة ولاحقة على النهج الذى تقدَّم ، مع البُعْد الشاسع بين المذهبين .

فقد حدَّد « وليم چيمس » - صاحب البراجماتزم - وآخرون الفضيلة بأنها ما حققت منفعة لصاحبها ، فإن لم تحقق له منفعة فهى الرذيلة وإن نفعت غيره !

فالشجاع الذى تؤدى به شجاعته إلى الموت شجاعته رذيلة وليست فضيلة لما ألحقت به من ضرر وخسران ، سواء أكان دفاعه عن وطن أو عرض أو مال أو عن ضعفاء !!

والاعتداء بالقتل - مثلاً - على آخر وإن لم يكن مجرماً فضيلة يوصف بها القاتل إذا تحقق له نفع بموت المقتول !!

وقد ترتب على هذا المذهب فى تحديد الفضيلة والرذيلة أو الخير والشر مبدآن :

أحدهما : أن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو مذهب « ماكيافيللى » المعروف فى كتابه « الأمير » الذى أجاز فيه أن يخدع الحكام رعاياهم وأن يكذبوا عليهم إذا كان فى الخداع والكذب مصلحة للحكام !!

والثاني : ليس فى الوجود حقائق ثابتة وأن الخير والشر أمران نسبيان . وما هو شر بالنسبة لشخص أو جماعة قد يكون خيراً فى نفس الوقت لشخص آخر أو لجماعة أخرى ، وما هو شر فى زمان أو مكان قد يكون خيراً فى زمان أو مكان آخرين .

وعلى هذا الأساس سارت النزعات الإلحادية كالشيوعية وهى نزعات أساسها الكفر بالله ، وأن الخير والشر ليس لهما أصل ثابت فى الوجود ، فما نفعك فهو الخير والفضيلة وإن أهلك غيرك ، وما ضرَّك فهو الشر والرذيلة وإن نفع غيرك !

والنقد الذى يُوجَّه لهذا المذهب نقد ناسف له من الوجود ، لأن مقياس النفع فى تحديد الخير والفضيلة عود إلى شريعة الغاب كما يقولون ، وسمة من سمات الحيوان الأعجمى فضلاً عن أن يكون سلوكاً حضارياً فى أى مجتمع إنسانى راق .

إنه مذهب همجى يقوم على « الأنانية » البغيضة ، ويمحو كل معنى جميل للحياة الفاضلة .

والمقارنة بينه وبين « وسطية » اليونان ترفع الوسطية عليه إلى أعلى عليين . فاليونانيون اجتهدوا فأصابوا كثيراً وأخطأوا قليلاً .

أما هؤلاء « النفعيون » فلم يكن عملهم اجتهاداً بل تعسفاً واعتداءً على قيم إنسانية لا يكون الإنسان إنساناً إذا لم يتحل بها .

بل واعتداء على سلطان العقل المستنير ، والفطرة السليمة ، فالعقل والفطرة يريان فى الإيثار والتضحية فضيلتين قدسيتين تُحمدان كل الحمد لفاعلهما حتى

عند الأطفال . أما ما عداهما من الأنانية والبطش وانتهاك حقوق « الغير » فهو أخلاق الوحوش الضارية ، وليست أخلاقاً إنسانية وإن صدرت من شخص فى صورة إنسان .

* *

* الكبوة الثانية - مصدر الإلزام الخُلُقى :

تشعَّبت الآراء والمذاهب الوضعية فى شعبة ذات خطر من شُعَب الدراسات الأخلاقية . وهى شُعبة البحث عن مصدر الإلزام الخُلُقى ، أو بعبارة أدق وأوضح : ما هو المصدر الذى يلزمنا بعمل الفضائل وينهانا عن عمل الشر والرذائل ؟

تنوَّعت الإجابة عن هذا السؤال تنوعاً ملحوظاً فى الدراسات الوضعية على النحو الآتى :

١- فريق يرى أن مصدر الإلزام الخُلُقى هو العقل !

فعقل العاقل يملى عليه فعل الخيرات والفضائل ، وينهاه عن ممارسة الشر والرذائل .

٢ - ويرى آخرون أن ضمير الإنسان هو الآمر الناهى فى هذا المجال .

٣ - وتذهب طائفة من الدارسين إلى أن الآمر الناهى هو أعراف المجتمع وتقاليده السائدة فيه .

٤ - وترى طائفة أخرى أن الآمر الناهى هو القانون السياسى فى كل بيئة .

٥ - ثم يذهب آخرون إلى أن الأمر والنهى فى مجال السلوك الأخلاقى يرجع إلى تعاليم الوحى الإلَهى والقيم الدينية المنبثقة عنه .

هذا فى إيجاز شديد حصيلة ما قيل فى تحديد المصدر الخُلُقى الذى لم تجتمع على تحديده الدراسات الوضعية حتى الآن .

* *

● **الأخلاق فى دين الله :**

لو كان أمر الأخلاق فى دنيا الناس موكولاً إلى العقل وحده لانتابتهم حالة غريبة من الاضطراب والحيرة ، ولكانوا كرجل ﴿ **فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ** ﴾ (١) لا يدرى مَن يطيع منهم ومَن يعصى ، ولا لمن يقدِّمَ كشف حسابَه ليوفيه أجره على ما عمل من خير ، وترك من شر .

أما فى دين الله وهداه فقد تحدد درس الأخلاق تحديداً دقيقاً من كل جهة :

* من جهة ما هى الفضيلة والخير ؟ وما هى الرذيلة والشر ؟

* ومن جهة مَن هو المُلْزِم - بحق - بعمل الفضائل ، والناهى عن عمل الرذائل ؟

* ومن جهة لمن يُقدِّم « العامل فى حقل الأخلاق » كشف حسابه ليوفيه أجره خير الوفاء .

وفى ضوء هذا التحديد الدقيق تزول الحيرة ، ويزول الاضطراب ، ويطمئن « العامل » كل الاطمئنان :

لأنه يعرف - بكل وضوح - ماذا يعمل وماذا يذر .

ولأنه يعرف - بكل وضوح - لحساب مَن يعمل .

ولأنه يعلم - بكل يقين - أن مَن يعمل لحسابه غنى حميد قادر على بذل الأجر والمثوبة .

ولأنه يعلم علم اليقين أن مَن يعمل لحسابه لا يخفى عليه شئ من أمره ، وأنه عادل لا يظلم العامل مثقال ذَرَّة : ﴿ **وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ (٢) .

* *

---

(١) الزمر : ٢٩ (٢) النساء : ٤٠

● الفضائل والرذائل :

الأخلاق الفاضلة فى دين الله هى الخير والشرف ، والأخلاق الرذلة هى الشر والخسة ، وما من خليقة شرف وخير إلا وتقابلها خليقة خسة وشر . والخير واسع لا حد له ، والشر واسع لا حد له . وبين الخير والشر أمور مشتبهات ، ليست هى خيراً محضاً ، ولا شراً خالصاً .

ودين الله يهدى إلى الخير والفضل والشرف دائماً ، وينهى عن الشر والنقيصة والخسة والدناءة دائماً .

والأمور المشتبهات بينها تركها أولى من فعلها فى دين الله ، ومَن اتقَّى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه ، ومَن وقع فيها كان كالحائم حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه ، كما جاء فى حديث شريف .

هذا هو موقف دين الله الإرشادى من هذه الشُعَب الثلاث : الفضائل - الرذائل - الأمور المشتبهات .

ولا سبيل لذكر الفضائل كلها - هنا - ولا لذكر الرذائل ، فهذا صعب المنال . والذى يغنينا عن ذكرها ضوابط كلية عامة يندرج تحتها كل ما هو خير وشر ، مع ما ركَّبه الله فى العقل من مَلَكة التمييز بينهما .

والقرآن الكريم له منهجان فى تحديد فضائل الخير ، ورذائل الشر . ففى مواضع كثيرة يذكر فضائل بعينها ويأمر بها ، ورذائل بعينها وينهى عنها ، كالوصايا العشر فى أواخر سورة الأنعام ، ومثلها فى سورة الإسراء ، وسورة الحجرات ، وسورة الشورى ، وغيرها كثير مُفرَّق أو مجموع فى سور القرآن ، كذلك وردت فضائل كثيرة مأموراً بها ، ورذائل كثيرة منهياً عنها فى السُّنَّة الشريفة .

والمنهج القرآنى الآخر - وكذلك السُّنَّة الشريفة - هو التعبير عن الفضائل والرذائل فى صياغات كلية جامعة .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وفى كتاب « إحياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى عرض طيب لكثير من الفضائل المحببة ، والرذائل البغيضة ، وكذلك فى كتاب « آدب الدنيا والدين » للماوردى

❊ ❊

● مصدر الإلزام :

أما مصدر الإلزام الخُلُقى فى دين الله فهو « الله » وحده لا شريك له .
وكون مصدر الإلزام الخُلُقى فى دين الله هو الله وحده ، فإن فى هذه « المصدرية » ضماناً وثيقاً لنجاح تجارة الأخلاق ، وحافزاً عظيماً على الالتزام بها لعدة اعتبارات :

أما أولاً : فلأن هذا المصدر جليل مهيب ، وللجلال والمهابة أثر عظيم فى الالتزام ، وباعث عميق على الامتثال يوضحه الفرق الكبير بين « الألوهية » الملزِمة ، و« العبودية » الملتزمة .

وأما ثانياً : فلأن هذا المصدر محيط بكل شئ علماً ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٢) .

يُحصى على العاملين أعمالهم - وإن نسوها - ثم يوفيهم جزاءها كاملاً غير منقوص .

وأما ثالثاً : فإن هذا المصدر غنى عزيز ، يثيب على الطاعات من فضله ، ولا يُرد بأسه عن الظالمين : ﴿ وَلله مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴾ (٣) .

---

(١) النحل : ٩٠ (٢) النمل : ٧٤ (٣) النجم : ٣١

وأما رابعاً : فإنه عادل كريم : لا يبخس عمل عامل ، بل يزيده من فضله : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) .

وأما خامساً : فإن المُلْك مُلْكه ، والكون كونه ، والمبدأ منه والمرجع إليه ، والأمر أمره ، والخلق عباده : خلقهم لطاعته هو وليس لطاعة سواه .

هو القوى وغيره ضعيف . هو الغنى وغيره فقير ، هو المالك وغيره مملوك ، هو العزيز وغيره ذليل ، هو الدائم وغيره زائل .

فكيف يُرجَى غيره ؟ وكيف يُخاف غيره ؟ وكيف يُعْمَل لغيره ؟!

وبذلك ترى كيف حادت الدراسات الوضعية فى مجال الأخلاق تحديداً وإلزاماً :

فلا العقل ، ولا القوانين ، ولا الضمير ولا العادات ولا التقاليد هى مصدر الإلزام الخُلُقى ، لا منفردة ولا مع الله ؛ لأن الله ليس معه « مع » ، والاعتقاد بأن غير الله هو مصدر الإلزام إلحاد ، والاعتقاد بأن مع الله مصادر أخرى للإلزام إشراك .

وفى كلتا الحالتين فإن عمل « الملتزم » ضائع . ولن يصح عمل - إيتاءً أو تركاً - إلا إذا قصد به العامل وجه الله وحده ، وفى الحديث القدسى : « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، فمَن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فهو للذى أشرك » .

وبهذا وضع دين الله وهداه الحق فى نصابه ، وقضى على كل الأوهام والدسائس الشيطانية ، وأنار الطريق للعاملين : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) النساء : ٤٠ (٢) النساء : ٨٧

الخاتمـــة

في جولة سريعة من خلال الصفحات المتقدمة ، تبيَّن لنا أن دنيا بدون دين الله كانت ستُحجب عنها معان وحقائق كثيرة هي في الواقع حياة الحياة ، ولولا دين الله في دنيا الناس لكانت الإنسانية في كون لا شمس فيه ولا أقمار ولا نجوم : ظلام مطبق من كل جهة لا يبصر فيه الإنسان شيئاً حتى ذاته ، ظلمات بعضها فوق بعض ، بل لكانت الإنسانية في « تيه » أبدى لا تعرف عن حقيقة الحياة شيئاً : مَن الذى خلقنا وخلق هذا الكون العجيب ؟ ولماذا خُلقنا ؟ وما هو مبدؤنا وإلى أين مصيرنا ؟ وهذه الحياة كيف نحياها ؟ وما هى رِسالتنا فيها ؟ بل : مَنْ نحن ؟ وما منزلتنا بين المخلوقات الأخرى ؟ وما علاقة بعضنا ببعض ، ولماذا نحيا ثم نموت ؟ وما هى الحياة وما هو الموت ؟ ولماذا يموت بعضنا طفلاً ، وبعضنا شاباً ، وبعضنا كهلاً ، وبعضنا شيوخاً ؟ ولكُنَّا كراكبى سفينة فى بحر لا شواطئ له لا ندرى ما حولنا ، وأسئلة لا حصر لها ما كنا نملك لها جواباً ، فجاء دين الله وبصَّرنا بالحقائق ، وملأ قلوبنا بالاطمئنان ، وحلَّ كل الطلاسم التى تلف حقيقة الوجود .

ثم رسم لنا طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، وحذَّرنا من مضار الحياة ، وعرَّفنا ماذا نعمل ، وماذا نَذَر ؟ ولماذا نعمل ولماذا نَذَر ؟ ولفت أنظارنا وعقولنا فى رفق إلى معجزات الخالق فى السموات وفى الأرض وفى أنفسنا وفى ما بين السموات والأرض ، فخلق بذلك فينا وعياً كونياً تم بفضله الانسجام التام بيننا وبين الوجود : ماضيه الطويل ، وحاضره العريض ، ومستقبله البعيد .

ثم كان لدين الله - بعد هذا البيان العام - مزيد اختصاص بمجالات العقيدة والتشريع والأخلاق ، ولم يكل هذه الأمور للنظر العقلى وحده ؛ لأن

العقل ليس مؤهلاً للانفراد بالنظر فيها ، فجاء دين الله هادياً ومرشداً للعقل فيها ، يقوده ويُبَصِّره ، ويُجَلِّى له الغامض ، ويُيسر له الصعب ، ويُقرِّب له البعيد ، ويكشف له المستور ، وبهذا - وحده - يلتقى نور الإيمان ونور العقل ، وهذه هى الهداية فى أجلى صورها وأقوى براهينها . ولهذا - ولهذا كله - كان : « **لا بد من دين الله .. لدنيا الناس** » .

القاهرة - الظاهر : المحرَّم ١٤١٥ (يونيو ١٩٩٤ م) .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

* * *

رقم الايداع : ١٩٩٤/٤٧٢١

I.S.B.N. : 977 - 225 - 052 - 7

كتب للمؤلف

١ - خصائص التعبير القرآنى - مجلدين - رسالة دكتوراة مكتبة وهبة

٢ - المجاز فى اللغة وفى القرآن الكريم - بين الإجازة والمنع - جزآن مكتبة وهبة

٣ - أوروبا فى مواجهة الإسلام .. الوسائل .. والأهداف مكتبة وهبة

٤ - افتراءات المستشرقين على الإسلام .. عرض ونقد مكتبة وهبة

٥ - عقوبة الارتداد عن الدين .. بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين مكتبة وهبة

٦ - الفقه الاجتهادى الإسلامى بين عبقرية السلف .. ومآخذ ناقديه مكتبة وهبة

٧ - الإسلام فى مواجهة الأيدلوجيات المعاصرة مكتبة وهبة

٨ - سماحة الإسلام .. فى الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية .. منهاجاً .. وسيرة مكتبة وهبة

٩ - لماذا .. لابد .. من دين الله .. لدنيا الناس مكتبة وهبة

١٠ - الإسلام فى مواجهة الاستشراق دار الوفاء

١١ - الفراغ وأزمة التدين عند الشباب المعاصر

١٢ - مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه

١٣ - تدابير الأمن فى الإسلام

١٤ - من الإمام الشهيد حسن البنا إلى القيادات الإسلامية

١٥ - أدب الإسلام فى الرياسة والسياسة